المماليك المفترى عليهم (٢)

سيْفُ الدّين قُــطـُـزْ

قاهــر المغــول

نورالدين خليــل

الإهـــداء

إلى شهداء

الحملة الصليبية الأمريكية

تمهيـــــد

هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلـــة (المماليك المفترى عليهم) ، بعد صـــدور الكتـــاب الأول : شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر .

وتحاول هذه السلسلة تناول الحقبـــة المملوكية فى مصر والشـــام ، وتجليـــــة ســـير وتراجم عظام المماليك من ذوى الخطر، والتذكير بأدوارهم الرائعة المضيئة التى يشرق بها التاريخ العربى والإسلامى . وعلى ذلك فإن هذه السلسة تهدف إلى إبـــراز تـــاريخ العـــرب والمسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى فى مصر والشام . وتكاد تقتصر تلك الفترة بوجه عام على أخطر حدثين داهما الأمة الإسلاميـــة ، وكانا وبالا على التاريخ الإنسانى كلـــه .

الحدث الأول ، وهو الأخطر، الحملات الصليبية التى أطلقتها أوروبا المســـيحية فـــى القرن الحادى عشر ، فانحرفت عن بغيتها المعلنة ، ألا وهي تحرير الأراضى المقدسة وقبر الرب من الكفرة المسلمين ، وانقلبت إلى لهو وعبث طوال ما يقرب من ثلاثة قرون ، عانت فيها الإنسانية معاناة كبيرة ، وأزهقت أرواح كثيرة ، وسالت دماء غزيرة ، طوال ما يقـــرب من ثلاثة قرون ، بل عانى فيها مسيحيو الشرق الأرثوذوكس من بنى عقيـــدتهم المســـيحيين الكاثوليك معاناة بالغة ، واستـــُبيحت الكنيســـة الشـــرقية فـــى القســـطنطينية وخـــــُنقت ، واستـــُبدلت بالكرسى الكاثوليكى لفترة من الزمـــان .

وكانت المحصلة النهائية بعد انتهاء الحملات الصليبية وطرد آخر جندي صليبي مـــن الشرق أن استفادت أوروبا أكبر الفائدة ، إذ كانت الحضارة الإنسانية مركزة لـــدى العـــرب المسلمين ، والقليل لدى بيزنطة الأرثوذوكسية التى كانت هى الأخرى تأخذ وتتعلم وتتطـــور

من الحضارة العربية الإسلامية . فكانت الحروب الصليبية بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الحضارة الإنسانية من بلاد العرب إلى أوربا . وعلى ذلك فإن الحضارة الأوروبية الحالية قد ولدت فى القرن العاشر فى المهد العربى الإسلامى ، ثم شبت عن الطوق وأصبحت على ما هى عليه الآ ن .

وانتهت الحملات الصليبية بمجئ المماليك ، وكأنما كانت تلك النهاية على موعد مجئ المماليك . ومن الحق أن الحملات الصليبية كان لها أن تنتهى فى وقت من الأوقات ، غير أن الفضل يرجع إلى المماليك فى اجتثاث شأفة الصليبية والصليبيين من الشرق العربى. على أنه بانتهاء الحملات الصليبية هذه فى بداية القرن الثالث عشر فإنها دخلت فى فترة بيات طويلة ، طالت حتى القرن العشرين ، ثم بعثت من جديد . فالحملات الصليبية إذن لم تمت ولم تذهب إلى غير رجعة كما يظن البعض من الجاهلين والمتعالمين ، لكن هذا حديث آخر ليست هذه الصفحات مجالا مناسبا للإسهاب فيه .

والحدث الثانى الذي يعد علامة من علامات الحقبة المملوكية هو بروز القوة المغولية وانطلاقها من أقاصى آسيا واندفاعها غربا كالإعصار المدمر واجتياحها لكل ما تجده أمامها، إلى أن أوقفها بطل هذا الكتاب ، ثم أجهز عليها المماليك من بعده وطردوها من العالم العربى كله .

ومما لا شك فيه أن التاريخ أهمل المماليك ولم يعطِ الفترة المملوكية هذه حقها من البحث والتمحيص ، وفى ذلك ظلم للمماليك برغم أعمالهم المضيئة الباهرة ، وأياديهم الكريمة المبهرة ، وإنجازاتهم الخارقة الجبّارة ، وسيرتهم العطرة السيّارة .

كما أن المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين ، انشغلوا عن المماليك بغيرهم ، وأغـدقوا صنوف المديح والإطراء على الخلفاء والأمراء ، على اختلافهم وتنوع دولهم ، فـلا نكـاد نعثرعلى ما يذكر للمماليك العظام ، برغم ما أسدوه للعرب والمسلمين ، بل وللإنسانية مـن أيادى لا تقل عما قدمه غيرهم من عواهل الخلفاء والأمراء ، الإ القليل منهم .

كما أن أغلب المؤرخين الغربيين ، من الَحاقدين علـى الإسـلام ، يجـدون متنفسـا لأحقادهم الدفينة فى تزييف التاريخ وحقائقه وأحداثه ، فهناك على سبيل المثال من يتجاهـل شجرة الدر، وهى أول سلاطين المماليك ، ولو حتى بإشارة عابرة ، وإنما يعتبر زوجها عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك . وهناك فئة من الكتّاب العرب الذين يستهدون بما يكتبـه الغربيون وينقلون عنهم نقلا أعمى، بل ويدافعون عنهم وعن آرائهم، متناسين أن الغرب أخذ عن مؤرخينا القدماء .

إن تناول التاريخ المملوكى وغيره من ماضى أمجاد مصر وأبطالها ، وهـم كثيـر ، واجب قومى يتعين تيـسيره للأجيال الصاعدة ، كي تتخذ من أبطاله مثلا يحتذى . فـالأمم تقوم على سواعد أبنائها وعقولهم وضمائرهم ، وما لم تطلع أجيال المستقبل علـى الأمجـاد الماضيه ، فمن أين تُسـتْمَد الغيرة ، وتـسـتْلهم العبرة ، وأنّى لتلك الأجيـال أن تـدفعها الحميّة ، وإلى ماذا تتطلع ، إلاّ أن تنساق وراء الغث ممـا تحملـه التيـارات المضـللّة ، والمغريات المنحرفة ، والمُغويات المريضة ، وما يطلقون عليه من حضارة هي فى حقيقتها قشرة مادية لامعة لا معنى لها فى تطور التفكير الإنسانى، بل تخفى وراءها عقولا خربـة ، وضمائر خاوية ، وأفئدة ترعى فيها الديـدان .

وما أحوجنا ، فى هذا القرن الحادى والعشرين الذى نشهده ، إلى أمثال المماليك العظام ليستردوا القدس الشريف السجين ، ويذودوا عن أطفال فلسطين ، ويحرروا أرض الإسـلام والعروبة من نير الذل والعار ، ويذيقوا الصليبيين الجدد كأسهم المعتّـقة التى ذاقها أجـدادهم قبل ألف عام .

ونظرا للأهمية البالغة لهذين الحدثين فى الحقبة المملوكيـة ، خاصـة الحـدث الأول المتعلق بالحملات الصليبية ، ولمزيد من الإفادة والإيضاح ، فقد حرصنا على أن يشتمل كل كتاب من كتب هذه السلسلة على فصلين لا يتغير محتواهما إلاّ فيما ندر ، همـا "المماليـك" و"الخلفية التاريخية"، وسيجد القارئ فى هذين الفصلين منشأ المماليـك وبـروز دولـتهم ، والتحالف الشرير بين الصليبيين والمغول. وما هذا التكرار إلا لحرصنا الشديد على تجليـة أحداث تلك الحقبة التاريخية وما حوته من أحداث جسام لها أخطر الأثـر علـى العروبـة والإسلام فى ذلك الوقت ، فضلا عن حرصنا على إتاحة الفرصة لشتى القراء المتعطشـين لمعرفة الحقائق المملوكية والصليبية فى مهديهما.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق .

ربيع الأول ١٤٢٥هـ / ابريل ٢٠٠٥م　　　　نور الدين خليل



الفصل الأول

من هم المماليك ؟



١ – مـــاذا نعـــرف عن الممـــاليك ؟

٢ – نشـــأة الممـــاليك

٣ – العبيـــد فى مختلـــف الحضارات

٤ – الإمام العِزعزالدين عبد العزيز بن عبد السلام

٥ – دولـــة الممـــاليك

٦ – الممـــاليك البحـــرية

٧ – الممـــاليك البرجيـــة

♣♣♣♣♣

١ – ماذا نعــرف عن المماليك

"ويل للأموات من الأحياء". مقولة صادقة فى كل زمان ومكان ، ونوازع الشر طاغية فى الإنسان على نوازغ الخير فيه من قديم الأزل ، إلا ّ من رحم ربى . وإنك لتبذل جهدك ، وتسعى سعيك فى العثور على ما يتناول المماليك وإنجازاتهم ، وتبحــث عنهم وعن أخبارهم فيما يتاح لك من كتب ، فلا تكاد تعثر على مرّادك . وإنما تجد العوام يقطّــبون ويعبســون إذا تصادف وأن جاء ذكر المماليك وكأن لعنة لحقت بهم .

وهناك من يصف بناء أهرامات فراعين مصر بأنه من أعمال السّخــْرَة والعبوديــة ، وتنطلق ألسنة حداد تلعن هؤلاء الملوك والفراعين ، وتخترع القصص حــول آلاف العمــال الذين قضوا نحبهم تحت الشمس المحرقة ، وتنهال اللعنات على جبروت الفراعنة من أجــل بناء مقبرة يدفن فيها الملك . ويتناسى هؤلاء ما كان يكنــّه قدماء المصريين مــن تبجـــيل وتعظيم لملوكهم ودياناتهم ومعابدهم ؛ وبالمثل ، هناك من لا يعرف عن المماليك سوى أنهم عبيد ، وفى أيامنا هذه يأنف الكثير من ذكرهم ويزدرونهم ويتباكون على مصر أيام حكــم المماليك . وتبلغ الأمور ذروة سخريتها عندما تسأل أحدهم عمّا يعرفــه عن شجرة الدر مثلا ، فيردد من فوره "القباقيب" ، إشارة إلى الوسيلة التى قــُتــِل بها زوجها عز الــدين أيبــك ضربا "بالقباقيب" ، ولو سألته من هذا ا لذى قتلوه بالقباقيب وما اسمه ؟ أطرق صامتا . وإن سألته عمّــا يعرفه عن شجرة الدر بخلاف تلك "القباقيــب" لا تحظى منه بسوى الصـــمت ، أو اللجلجة . هذا مثل من أمثلة عدة عمّا لحق بالمماليك من ظلم الجهالة والجــُهــّال . ولــو سألته عمّن فتح "عكّا "، ينظر إليك فى بلاهة خبيثة ثم يتكلّف الجدية ويتمتم متلجلجا : عكــّا .. نابليــون ..

هذه مجرد أمثلة عمّا لحق بالمماليك من ظلم بيّــن . وليس هناك مــن شــك فــى أن الشرق العربى الإسلامى فى حاجة ماسة لأن يعيد كتابة تاريخ هذه الفترة المملوكية الباهــرة ، حتى تعود للأمة أمجادها الغابرة ، خاصة وأن أعداء الأمة الإسلامية سواء فى الشــرق أو فى الغرب قد بدأوا ينهشونها فى شراسة بينما يرفعون شعارات جوفاء ومقولات عرجاء عن حريات لا يفهمونها، وخاصة حقوق الإنسان التى يتشدوق بها .

٢ – نشــــأة المماليك

تلقتهم الحياة عابســـة ، ومدت إليهم يداً خشنة ، وشاعت أن تلطم طفولتهم ، فحرمتهم حنان الأم ودفء العائلة ، وأطلقت يد النخّــاسين تختطفهم من ذويهم أو تلــتقطهم بعــد أن قضى العائل أو العائلة فى الحروب ، وتلقى بهم من تاجر إلى آخر ، ومن مكان إلى غيره . والوجوه البريئة الخائفة، تُجمع كالخراف ، تمضى نهارها وكأنها قطيع ، وقد غــرس فيهــا الخوف طاعة عمياء ، وتلبية للأوامر خرساء ، إلى أن يغلبهــا النــوم فــــتفترش الأرض، ويتكور البعض على البعض .

وسرعان ما يعتاد الأطفال خشونة الحياة ويألفون جفاءها ، وتمضى بهم الأيام سيرتها ، وبينا هم يشبّون عن الطوق يهدأ لهم وجه الحياة ، ويشغلهم آمروهم أو مالكوهم فى المران والنــزال، والفروسية والقتال ، وإذا هم فوارسا وجنودا ، يعرفون أن سلطانا أوأميرا يملكهم وأن طاعتة واجبة، وعصيانه نائبه ، فهو الذى يعولهم ويعلمهم ، وله الفضل فيما هم عليه من شتى النعــم .

ويروى لنا التاريخ متى بدأت تلك النخاسة ، يخبرنا أنها بــدأت فــى القــرن التاســع الميلادى ، عندما كان النخاسون يختطفون الأطفال من عائلاتهم ، أو يجمعون مــن قــُتل آباؤهم وذووهم فى الحروب ، وفى بعض الأحيان القليلة يتركهم الوالدان من إملاق ، إذا كان الفقر شديدا وبالحياة خصاصة وعَــوَزْ . وكان النخاسون يجمعون الأطفال من بلاد القوقــاز أو التركستان أو غيرها كى يصبحوا جنودا مملوكين لمن اشتراهــم .

وكان أكثر السلاطين اقتناء للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ – ١٢٤٩ م) الذى وجد فى ذلك وسيلة ناجعة لحماية سلطنته فى حروبه مع الصليبيين وفى صراعه مع أبناء عمومته من الأيوبيين . وتشــاء الأقدار أن تستهل زوجته شجرة الدر دولــة المماليــك وتتربع على عرش السلطنة فى مصر لتصبح أول سلاطين المماليك ، والمرأة الوحيدة التــى جلست على عرش السلطة على مدى التاريخ الإسلامى كله ، ثم أفسحت الطريــق للمماليــك ليحكموا مصر وسوريا وينشئوا دولة المماليــك .

كما يحدثنا التاريخ أن قصة المماليك بدأت فى بغــداد فــى عهــد الخليفــة العباســى المستعصم (٨٣٣ – ٨٤٢ م) وسرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى . كما يــروى لنا كيف تعلم المماليك انتزاع حقوقهم ورفاهيتهم اغتصابا ، وكيف كانوا يستغلون ما مُــنحوا من سلطة عسكرية وسياسيــة ليسيطروا على البلاد وعلى السلطات الشرعية ، إلى أن وقعت الخلافة نفسها بعد عهد المستعصم فى قبضة أمراء المماليك . على أن الخلافة ذاتهــا كانــت باقية كرمز للسلطة الشرعية ، أما السلطة الفعليــة فكانت فــى أيــدى أمــراء المماليــك ، تعززهــا كتائب مملوكية أُتــْقِن تدريبها وتعليمهــا فباتت تدين بالولاء لقــادتها . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى بلغت قوة المماليك ذروتها وأحكموا قبضتهم على البلاد فى كل

من مصـــر وسوريا ، وكذلك الهنـــد التى كان لابد للسلطان فيها من أن يكون بالضرورة من المماليك أو من ورثتهـــم .



٣ - العبيد فى مختلف الحضـــارات

وعلى ذلك ، فالمماليك أناس يملكهم غيرهم ، وهى تسمية أخف وطأة من لفظ العبيد أو الأرقاء ، وهى مصطلحات لم يكن رجال الفكر يرون فيها إهانـــة أو ازدراء : ونثبت هنـــا مختلف الآراء حيال العبيـــد :

أرسطـــو: يرى ذلك الفيلسوف الكبير ، ذو العقل الجبار، صاحب الأقوال الكبيـــرة الخطيرة ، أن البعض قد خلقوا للعبودية لأنهم يعملون كالآلات ويديرهم المفكرون الأحرار.

أفلاطـــون: (وهو أستاذ أرسطو) نادى فى جمهوريته الفاضـــلة *Utopia* بحرمـــان العبيد من حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار سواء من أســـيادهم أو الأسياد الغرباء .

الحضارة اليونانية: أباحت وشرعت نظام الرق فى شكليه العام والخاص .

اليهودية : أباحت الرق الذى كان واسع الإنتشار فى العالم المعروف علـــى وجـــه التقريب .

المسيحية: سارت على نهج اليهودية فأباحت الرق ولم تحرمـــه وأمـــرت العبيـــد بالطاعة لأسيادهم كما يطيعون المسيح . وجاء فى العهد الجديد من الكتاب المقدس :

"أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح"

(الرسالة إلى أهل افسس ٦ : ٥)

الإسلام : لكن الإسلام هو النظام الدينى الوحيد الذي لـــم يـــبح الـــرق ، وتـــنص شريعتـــه على أن العتق كفـــارة للذنوب . وتنص قلبا وقالبـــا على الكثير من المنافذ التـــى

تؤدى إلى التخلص من هذه الظاهرة القديمة . وورد عتق الرقيق أو (تحرير الرقبـــة) فـــى القرآن الكريم في أربع كفارات : القتل الخطأ ، واليمين الكاذب ، والظـــهار ، ثـــم تتويجـــ للسعى فى الحياة على إجمالها :

١- "ومن قتل مؤمنا خطأ فتـــحريررقبة مؤمنة ..." (النساء) (٤ : ٩٢)

٢- "لاَ يؤَاخذكم الله باللّغو فى أيمانكم ولكن يؤَاخذكم بما عقدتّم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ..."

(المائدة) (٥ : ٨٩)

٣ – "والذين يظاهـــــرون من نسائهـــم ثم يعـــودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبـــل أن يتماسا ..." (المجادلة) (٥٨ : ٣)

٤ – " فلا اقتحم العقبـــة * وما أدراك ما العقبـــة * فك رقبـــة * أو إطعـــام فـــى يـــوم ذى مسغبة ... " (الشمس) (٩٠ : ١١- ١٤)

على أننا نورد فيما يلى حادثة أوردها عبد الرحمن الشرقاوي فى كتابه "أئمـــة الفقـــه التسعة" حدثت فى مصر مع المماليك ، أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تلقى مزيدا مـــن الضوء على نظرة المجتمع إلى المماليك قبل أن يعظم شأنهم ، وقبل سنوات قلائل من قيـــام دولتهم .



٤ - الإمام العِزعزالدين عبد العزيز بن عبد السلام

كان الإمام العزعزالدين بن عبد السلام قاضى القضاة فى دمشـق، ليس هناك من هو أفقه منه فى زمانه . وتحالف الصالح إسـماعيل مـع الصليبـيين وسلمهم مدينة صيدا وبعض المدن الأخـرى فـى فلسـطين وقلعـة الشقيف ، فقاومه الإمام عزالدين واعتلى المنبـر وأعلـن خيانـة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام ، وحرض النـاس علـى خلـع طاعته ، وانضم إليه الشيخ ابن الحاجب وأصدرا فتوى بخيانـة السـلطان وخلع طاعته . وانتهى الأمر بالإمام عزالدين إلى مغادرة دمشـق وحـل بمصر، حيث استقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب وأكرم وفادته وعينـه إماما وخطيبا لجامع عمرو . وسرعان ما عيّنه قاضيا للقضاة .

وما لبث الشيخ أن لاحظ أن أمراء مصر وقادة الجيش من المماليك الأرقاء اشتراهم السلطان صغارا وتعلموا اللغة العربيـة وعلـوم الـدين الإسلامى وليسوا أحرارا وليس لهم حقوق الأحرار ، ومن ثم ليس لهم أن يتزوجوا حرائر النساء ، ولا يحق لهم البيع والشراء والتصرف كالأحرار وإنما كما يتصرف العبيد .

وانزعج السلطان واضطربت الأمـور مـع المماليـك ، فهجـرت الزوجات فراش الزوجية ، وتراجع التجار عن صفقاتهم مـع المماليـك ، وراح الصبية ينادون أمراء المماليك فى الطرقات بالعبيد بـرغم الهيبـة

والمنصب . ويورد السيوطى فى "حُسنْ المحاضرة" تلك الأوضاع قائلا :

تصدى الشيخ عزالدين لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فعظم الخطب عندهم والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ، وتعطلت مصالحهم بذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثارغضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال الشيخ : نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ونحن ملوك الأرض؟ والله لآضربنه بسيفى هذا. فركب بنفسه فى جماعته والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأي من نائب السلطان ما رأى ، وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك وقال : يا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله . ثم خرج فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى إيش تعمل ؟ فقال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى . فسأل النائب : فيم تصرف ثمننا ؟ فقال : فى مصالح المسلمين . فسأل النائب: ومن يقبضه ؟ فرد الشيخ : أنا .

وانصرف النائب وأخبر السلطان الذى رفض ذلك البيع . لكن الشيخ أنكر تدخل السلطان فى القضاء ، وجمع أمتعته وأهل بيته ، ووضعهم على حمير ، وعزم على الرحيل . ورافقته جموع حاشدة باكية متوعدة ، وكاد الأمر أن يصير إلى ثورة . وأسرع السلطان على فرسه وشــق الجمــوع الغاضبة وتلطف مع الشيخ قائلا : يا إمام ، لا تفارقنا . عُــدْ ، واصنع ما بدا لك .

وعاد الشيخ وسط تهليل الحشود ، وجمع السلطان المماليك وأمــراء القلعة وعرضوا فى مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى فى ثمنهم ، إلــى ان امتنع الحاضرون عن المزايدة ، فتقدم السلطان ودفع ثمــنهم مــن مالــه الخاص واشترى جميع أمراء الماليك وأعتقهم ، فأصبحوا أحراراً.

حدث ذلك قبل سنوات قلائل من قيام دولة المماليك ، وربما كانت تلك الحادثــة مــن العوامل التى جعلتهــم يسارعون إلى اغتيال توران شاه وتنصيب شجرة الــدر ســلطانة (أم خليــل) عقب وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واغتيال إبنه ووريثه توران شاه، وإن كانت هناك عوامل أخرى إلى جانب تلك الحادثة . ومن استقراء تاريخ المماليــك مــن اليسير أن نلاحظ أنه لم يكن هناك نظام موضوع أو عرف متبوع لتولى السلطنة فيما بينهم ، وإنما كان الأقوى هو الذي يجلس على عرش السلطنة كما سنرى فى الصفحات التالية عنــد الحديث عن قيام دولة المماليــك .

٥ – دولــة المماليك

مر بنا أن قصة المماليك كانـــت قد بدأت فى بغداد فــى عهــد الخليفــة العباســى المستعصم (٨٣٣-٨٤٢م) وسرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى . كما مر بنا كيف تعلم المماليك انتزاع السلطنة اغتصابا ، واستغلال ما كان بأيــديهم مــن ســلطة عســكرية للسيطرة على البلاد وعلى السلطات الشرعية . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى بلغــت قوة المماليك ذروتها وأحكموا قبضتهم على كل من مصر وسوريا .

كما مر بنا أن شجرة الدر بدأت دولة المماليك بعد وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٥٠م وتربعت على عرش السلطنة فى مصر لتصبح أول سلاطين المماليــك ، والمرأة الوحيدة التى جلست على عرش السلطة على مدى التاريخ الإســلامى كلــه ، ثــم أفسحت الطريق للمماليك ليحكموا مصر وسوريا وينشئوا دولة المماليــك .

ولقد اعتــاد المؤرخون على تقسيم التاريخ المملوكــى إلى فترتين : يطلقــون علــى مماليك الفترة الأولى المماليــك البحرية (١٢٥٠– ١٣٨٢م) ، وعلى مماليك الفتــرة الثانيــة المماليك البرجيــة (١٣٨٢– ١٥١٧م) . وليس هناك من سبب لهذه التسمية إلا أن المماليــك البحرية كانوا يقيمون فى جزيرة الروضة فى نهر النيل (أو بحر النيل) ومــن هنــا جــاءت التسمية ، وأما المماليك البرجية فكانوا يقيمون فى برج القلعة بالقاهــرة .

ولقد تواصلت دولة المماليك فى مصر وسوريا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها ٢٦٧ سنة ، تعاقب عليها ما لا يقل عن ٤٥ سلطانــا مــن المماليك ، وأفلح البعض منهم فى إنشاء أسر حاكمة ، أشهرهم السلطان قلاوون الذى حكم فى

الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠م ، وحكمت ذريتــه بفترتى انقطاع حتى سنة ١٣٨٢م ، وتتابع من ذريته على حكم مصر أربعة عشر سلطانا . وبعد الإنتصار المملوكى على المغول فــى معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطــز ، استولى بيبرس الأول على السلطة ، وهو بحق المؤسس الحقيقى لدولــة المماليك ، إذ نشط فــى حروبــه ضــد بقايــا الصليبيين ونجح فى القضاء عليهــم فى فلسطين وسوريا ، وطارد المغول ، وحكــم حتــى عــام ١٢٧٧م .

وتشاء الأقدار أن تبتسم الحياة للمماليك بعد عبوسها الأول ، وتجعل منهم قادة عظــام تحققت على أيديهم أجل وأهم وأعظم إنجازات ذلك العصر ، من طرد الصليبيين تماما مــن الشرق ، إلى صــدّ الإجتياح المغولى الذى لم يقف فى طريقه أي حاكم فى أي بقعــة مــن أقاصى الشرق وحتى حدود مصر وفى داخل أوروبا ، أي القارة الآسيوية بكاملها على وجه التقريب وأجزاء من شرق أوربا واستحقوا بذلــك جميل الأمة الإسلامية والعربية وعرفانها، بل والأمة الأوروبية كذلك . لقد أنقذ المماليك الحضارة الإسلامية والعربية من الدمار.

ليس هذا وحسب ، وإنما احيوا الخلافة التى قضى عليهــا المغــول عــام ١٢٥٨م ، ونصــبّوا خليفة تحت رعايتهم فى القاهرة ، وأصبحوا أوصــياء علــى حكــام المــدينتين المقدستين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة . ولم تكن انتصاراتهم العسكرية الباهرة لتتحقــق لولا تشجيعهــم وتقويتهــم لإقتصاد بلادهم ، وتبنــيهم للصــناعات والحـــرَف ، وكـــانوا حريصين على أن تبرز مصر كمركز للطريق التجارى الرئيسى وللتجــارة العــابرة بــين الشرق وبلــدان البحر المتوسط .

بيد أنه لكل بداية نهاية ، ولكل هدف غايــة . ولكل شروق غروب ، إذ بــدأت هــذه الشعلة المملوكية المضيئــة تخبو شيئــا فشيئــا بعد وفاة الملك الناصر (١٢٩٣ – ١٣٤١م) ، ولم يجد المماليك من يخلف الملك الناصر فى قوتــه وعظمته ، وسرعان ما انطفــأت تلك الشعلة المملوكية وذهب ضوؤها عام ١٥١٧م عندما هزم الســطان ســليم الأول العثمــانى السلطان المملوكى طومان باي الثانى فى معركة الريدانية القريبة من القــاهرة ، وبعــد أن هزمهم أيضا فى معركة مرج دابق شمالى حلب عام ١٥١٦م . وهكذا انتهت دولة المماليــك كقوة عسكربة وسياسية . وبدأ عهد الإمبراطورية العثمانية فى الأراضى التى كانــت تــدين للمماليك سواء فى مصر أو فى الشام .

أما بقايا المماليك من الأمراء الأقل شأنا وعائلاتهم وذويهم ، فقد سارت بهــم الحيــاة سيرتها ، يعيشون فى مصر بلا فعالية حقيقية ، لا يكاد يرد لهم ذكر فى صفحات التــاريخ ، حتى أواخر القــرن الثامن عشر ، عندما هبط نابليون فى مصر ، وظن بقايا المماليك أنهم قادرون على التصدى له . والمعروف أنه بعد رحيل الحملة الفرنسية من مصر، تولى محمد على باشا حكم مصــر . وهكذا عاودت الحياة عبوسها ، كما فعلت بــادئ الأمــر، فقضــى عليهم محمد على باشا (١٨٠٥ – ١٨٤٨ م) فى مذبحة القلعة الشهيرة .



٦ - المماليـــك البحريـــة

سلاطــين المماليــك البحرية	فترة السلطنة
٠١- شجرة الدر (سلطانة)	١٢٥٠م
٠٢- أيبـــك (المعز عــز الدين)	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- على بن أيبك (المنصور نورالدين)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- قطــز (المظـــفـــر سيف الدين)	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهرركن الدين)	١٢٦٠- ٢٧٧
٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس)	١٢٧٧- ١٢٧٩م
٠٧- سلامش (العادل بدرالدين بن الظاهربيبرس)	١٢٧٩م
٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين)	١٢٧٩- ١٢٩٠م
٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون)	١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠- الناصر محمـــد (بن قلاوون)	١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١- العادل كتبغـــا (العادل زين الدين)	١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين)	١٢٩٦- ١٢٩٩م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية)	١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٣- بيبرس الثانى الجاشكير(المظفرركن الدين)	١٣٠٩- ١٣١٠م

الناصر محمـــد بن قلاوون (مرة ثالثة)	١٣١٠- ١٣٤١م
١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصورسيف الدين)	١٣٤١م
١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين)	١٣٤١- ١٣٤٢م
١٦- أحمد بن الناصر محمـــد (الناصر شهاب الدين)	١٣٤٢م
١٧- إسماعيل بن الناصرمحمد(الصالح عماد الدين)	١٣٤٢- ١٣٤٥م
١٨- شعبان الأول بن الناصرمحمد (الكامل سيف الدين)	١٣٤٥- ١٣٤٦م
١٩- حاجى الأول بن الناصر محمـــــد	١٣٤٦- ١٣٤٧م
٢٠- الحسن بن الناصر محمـــد (الناصر)	١٣٤٧- ١٣٥١م
٢١- صالح بن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين)	١٣٥١- ١٣٥٤م
الحسن بن الناصر محمد(الناصر) (مرة ثانية)	١٣٥٤-١٣٦١م
٢٢- محمد بن حاجى (المنصور صلاح الدين)	١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٣- شعبـــان الثانـــى (الأشرف ناصر الدين)	١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٤- على بن شعبــــان (المنصور علاء الدين)	١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٥- حاجـــى الثانـــى (الصالح صلاح الدين)	١٣٨١- ١٣٨٢م

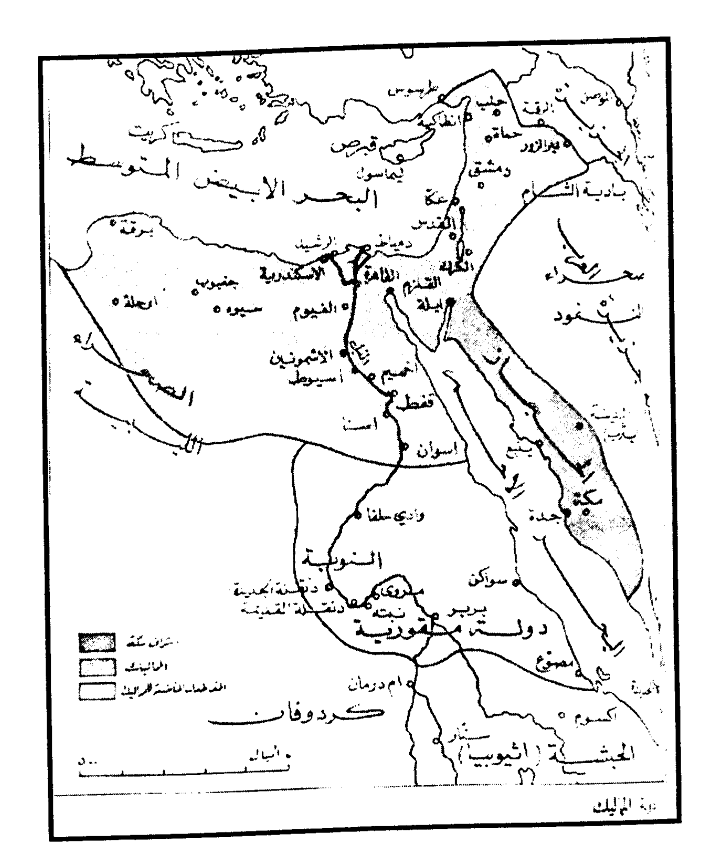
♣♣♣♣♣

٧ - المماليك البرجيّة

سلاطين المماليك البرجية	فترة السلطنة
٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين)	١٣٨٢- ١٣٩٨م
٢٧- فرج بن برقوق (الناصر)	١٣٩٨- ١٤٠٥م
٢٨- عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥م
فرج بن برقوق (مرة ثانية)	١٤٠٥-١٤١٢م
٢٩- الشيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر)	١٤١٢- ١٤٢١م
٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر)	١٤٢١م
٣١- الظاهر ططر	١٤٢١م
٣٢- محمد بن ططر (الصالح)	١٤٢١- ١٤٢٢م
٣٣- برسباى (الأشرف سيف الدين)	١٤٢٢- ١٤٣٨م
٣٤- يوسف بن برسباي (العزيز جمال الدين)	١٤٣٨م
٣٥- جقمق (الظاهر سيف الدين)	١٤٣٨- ١٤٥٣م
٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين)	١٤٥٣م
٣٧- إينال العلانى (الأشرف سيف الدين)	١٤٥٣- ١٤٦٠م
٣٨- أحمد بن إينال (المؤيد شهاب الدين)	١٤٦٠- ١٤٦١م

٣٩- خشـــقدم (الظاهر سيف الدين)	١٤٦١- ١٤٦٧م
٤٠- بلباي المؤيـــدى (الظاهر سيف الدين)	١٤٦٧- ١٤٦٨م
٤١- تمريـــغـــا (الظاهر)	١٤٦٨م
٤٢- قـــايتبـــاي (الأشرف سيف الدين)	١٤٦٨- ١٤٩٥م
٤٣- محمـــد بن قايتبـــاي (الناصر)	١٤٩٥- ١٤٩٦م
٤٤- قـــانصـــوه (الظاهـــر)	١٤٩٧م
محمـــد بن قايتـــباي (ثانى مرة)	١٤٩٧- ١٤٩٨م
٤٥- قـــانصـــوه (الأشرفى)	١٤٩٨- ١٥٠٠م
٤٦- جنبـــلاط (الأشـــرف)	١٥٠٠- ١٥٠١م
٤٧- ظومـــان باي الأولـــ (العادل)	١٥٠١م
٤٨- قانصـــــوه الغورى	١٥٠١- ١٥١٦م
٤٩- طومان باى الثانـــى (الأشرف)	١٥١٧م

♣♣♣♣♣



دولــة المماليــك فى مصــروسوريــا حوالى سنة ١٣٥٠م

الفصل الثانى

عَـــصْــرُ المَمَاليـــكْ

خلفيّة تاريخيّـــة



أولا ــ مقــد مــة

ثانيا ــ الحملات الصليبية

ثالثا ــ الإجتياح المغــولى

رابعا ــ التحالف الصليبى المغولى

♣♣♣♣♣



أولا : مقدمـــــة

بدأ عصر المماليك سنة ١٢٥٠م . وكانت الحملات الصليبية قد تمكنـت مـن إنشـاء ممالكها وإماراتها بادئ الأمر فى سنة ١٠٩٩م ، أي أن دولة المماليك بـدأت بعـد مضـى حوالى ١٥٠ سنة تقريبا من بداية إنشاء الممالك الصليبية ، وخلال تلـك الفتـرة تطـورت الأوضاع وتغيرت وتبدلت .

وتزامن بدء التحرك المغولى من شرق آسيا مع بداية العصر المملوكى. ففـى سـنة ١٢٠٦ م تقريبا كان المغول قد انطلقوا غربـا . وفى ١٢٥٨م دخل المغول بغداد وخربوها ، ودخلوا دمشق بعد ذلك بعامين أي فى ١٢٦٠م . ومعنى ذلك أنه كان على دولة المماليك أن تتصدى لعدوين شرسين : بقايا الصليبيين فى استماتتهم لإسترجاع ما فقدوه بعد أن هـزمهم صلاح الدين الأيوبى فى معركة حطين ، والمغول بجحافلهم الجـرارة إلـى قلـب العـالم الإسلامى .

وكانت بداية نهاية الوجود الصليبى فى الشرق قد بدأت بانتصار صلاح الدين الأيوبى فى معركة حطين الفاصلة سنة ١١٨٧م ، وبعد حوالى ٦٣ سنة من تلك المعركة بدأت دولة المماليك ، أي بعد جيل واحد على وجه التقريب . ويعلم المطلعون على التاريخ وصروفه أن هذا الجيل شهد صراعات وخلافات الأسرة الحاكمة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، مما ورد تفصيله فى الكتاب االأول (شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر) .

وعلى ذلك فإن الخلفية التاريخية لدولة المماليك عموما وخاصة فى بداية نشأتها ، تكاد تكون واحدة : الصليبيين ، والمغول ، والتحالف الصليبى المغولى . أما الخلفية التاريخية لكل

من سلاطين المماليك الذين تتناولهم هذه السلسلة ، فتختلف فى تفصيلاتها اختلافـا تتـأرجح شدته ونوعيته .

وتكاد الخلفية التاريخية فى هذا الكتاب أن تقتصر على المغول فقط ، إذ كانت فتـرة حكم السلطان العظيم سيف الدين قطز أقل من سنة واحدة ، حقق فيها المعجزة التى أنقـذت العالم الإسلامى ، بل العالم المعمور آنذك . ولا نتردد فى التنويه بأن ذلك آية من الآيـات ، ومعجزة من المعجزات . وصدق الله العظيم : "وما تشاؤون إلا أن يشـاء الله" .

ثانيـا : الحملات الصليبية

نحرص كل الحرص على التذكير بالحملات الصليبية ، كيف نشـأت ، ومـن الـذى أطلقهـا ، وأسبابها ، وتطورها على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان .

وقد يتساءل البعض ، لـمَ كل هذا الحرص ؟ فالحملات الصليبية مضت وأصبحت فى طى النسيان ، وهى الآن مجرد تاريخ مضى عليه ما يقرب من ألف سنة ، أما الآن ، فقـد شب العقـل الإنسانى عن الطوق ، فضلا عمـا قد يثيره ذكرها وتجديد أحداثها مـن بعـث لروح العداوة والفتنة افى هذا القرن الحادى والعشرين الذي بات العالم فيه قريـة واحـدة ، وحلت العولمة بين ظهرانينا كى تقرّب لا أن تبعّد ، وتوحّـد لا أن تفـرّق ، وأصـبحت الحضارة فى ريعان شبابها ، ينتفع بها القاصى والدانى فى مشارق الأرض ومغاربها ، بعـد هذه الثورة العظيمة فى سبل التواصل !

ولا نجد ما نصف به هؤلاء سوى صفة واحدة من صفتين : السذاجة الجاهلة أو الخيانة المقنّـــعة .

ذلك أن الغرب الصليبى عاد سافرا فى هذا القرن العشرين يجابه عدوه التاريخى بعدما فرغ من عدوه الثانوي ، الشيوعية ، متمثلـــة فى الإتحاد السوفياتى السابق . واستدار إلـــى عدوه الرئيسى ألا وهو الإسلام ، وها هو قد تمكن من السيطرة على العالم الإسلامى كله أو جلّـــه . فبدأ بالتآمر على الخلافة الإسلامية ، وجنّـــد كمال أتـــاتورك ، وهـــو مـــن يهـــود الدونمـــة – الأمر الذي يجهله سواد العرب والمسلمين – واتفق معه سرا فى لـــوزان علـــى الإطاحة بالخلافة الإسلامية ، وأفلح أتاتورك فى مهمتـــه سنة ١٩٢٦م فى أعقـــاب الحـــرب العالمية الأولى . ثم تبنى الغرب الصليبى سياسة فرّق تسد ، فمزق الإمبراطورية العثمانيـــة إلى دول مستقلة ، ثم شرع فى زرع أعداء الإسلام فى فلسطين بعد أن منحت انجلترا اليهود وعد بلفور الشهير ، وبعد أن يسّرت هجرة اليهود إلى فلسطين ، وأمدتهم بالمال والســـلاح ليقتلوا أصحاب البلـــد ، بينما سارع إلى مجلس الأمن ليضفى الشرعية علـــى قيـــام دولـــة إسرائيل سنة ١٩٤٧م .

وليس هذا مجال الحديث عن الصليبية الجديدة ، وإنما نختم هذه العجالة بالتذكير بمـــا قاله الرئيس الأمريكى جورج بوش من أن الرب كلّفه القيام بالحملة الصليبية ، وأنـــه عاقـــد العزم على إنجازها ، فأرسل أحدث أسلحته واحتل العراق كي يتحقق مـــُلـــْك سليمان ، بعد أن أوهم العالم بأن العراق يمتلك أسلحة نووية تستطيع بها تدمير الغرب فى عضون خمـــس وأربعين دقيقـــة .

ولنعد إلى أصل الحملات الصليبية ، كي نعلم أن العالم العربى الإسلامى مهدد تحوطه الأخطار .

فى عام ١٠٩٥م وقـــف البابا إيربان الثانى فى مدينة كليرمونت الفرنسية أمام جمـــوع وحشود تنتظر خطابه الذى أذيع أن سيكون له أهمية بالغة ، وإذا به يطلق صيحته الشـــهيرة التى دعـــا فيها إلى حمل الصليب والتوجه شرقـــا لتحرير الأرض المقدســـة وقبر المســـيح من أيدى الكفرة المسلمين ومناصرة مسيحيي الشرق فى العالم المســـيحى الأرثوذكســـى ، واعـــداً من يأخذ الصليب ، أي يضع صـــورته على ملابسه ويخرج، بالغفران من الخطايا .



خطاب البابا إيربان الثاني في مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد ان عذبوهم أشنع تعذيب، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم ــ أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم ــ فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ــ لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من

شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السماوات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥- ١٦)

(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

واشتعلت الجموع حماسا وحميّة ، وراحت تردد فى صياح صاخب: "الرب يشاؤها ... الرب يشاؤها" . وعلى الفور انطلقت الحشود ، سواء من الفقراء المعدمين المتلهفين إلى أرض اللبن والعسل ، أو أمراء الإقطاعيين المفلسين الذين حرمهم نظام توريث الإبن الأكبر

من اقتناء الإقطاعيات ، ولاحقا الملوك والأباطـرة الذين خرجوا بجيوشهـم ، طوعـا أو كرها ، انصياعا لأوامر الباباوات أوإشباعا لأطماع خاصة ، أو تشفيا لأحقاد دفينـة .

وأفلحت الحملات الصليبية بادئ الأمر، وقامت فى الشرق بضـع ممالـك وإمـارات صليبية : فى الرها ، والقدس ، وطرابلس ، وعكا وأنطاكية ؛ ويعزو مؤرخـون غربيـون منصفون ، وهم قلّة، نجاح تلك الحملات إلى عاملين اثنين لا ثالث لهما : تفـرّق العـرب والخيانـة . ودامـت الحروب الصليبية طوال ما يقرب من ثلاثة قرون إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى ، كما مر بنا ، ليتوج جهود من سبقوه من قادة المسلمين الذين مهدوا له طريق توحيد العالم العربى الإسلامى ، فقضى فى الواقع على الوجود الصليبى فى الشرق بانتصاره فى معركة حطين سنة ١١٨٧م ، وتوارث أبناؤه الإمبراطورية الأيوبية الشاسعة وكان آخرهم نجم الدين أيوب ، زوج شجرة الدر.

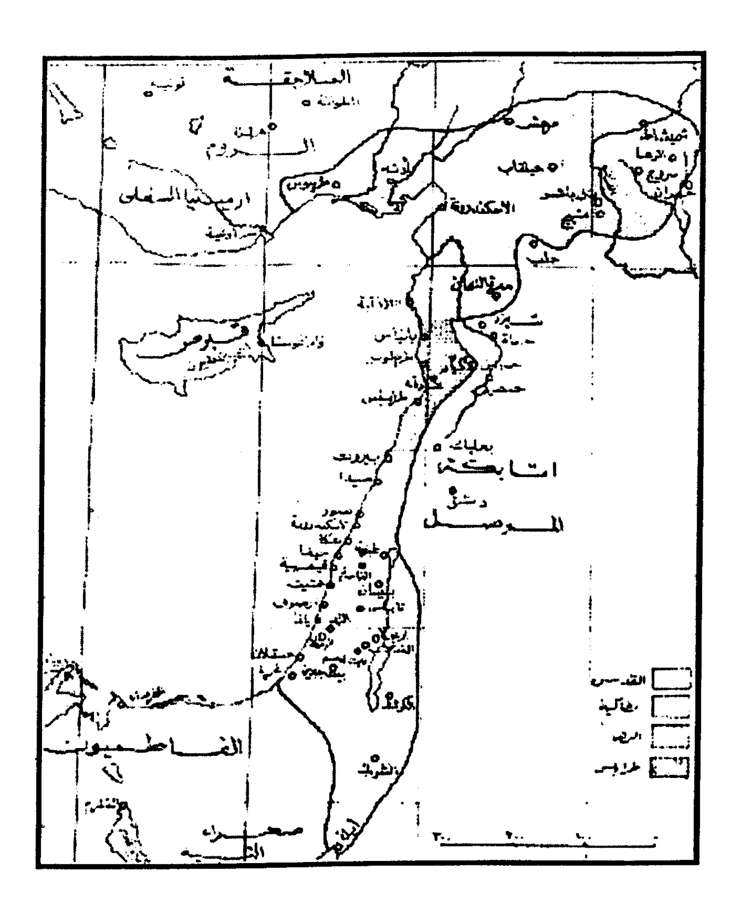
وأمضى نجم الدين أيوب جُـلّ حياته محاربا للصليبيين، كما شغلته خلافـات أبنـاء عمومتـه من الأيوبيين ، لكنه استعاد القدس التى كانت قد ضاعت بالمفاوضـات بتسـليمها للصليبيين . وكانت الهزائم التى ألحقها بالحملة الصليبية السادسـة قد أثارت لويس التاسـع ملك فرنسـا ودفعته الى إعداد العدة والذهاب بجيوشه الى الشـرق فيمـا يعـرف بالحملـة الصليبية السابعة ، التى ترد تفصيلاتها فى الكتاب الآول من هذه السلسـلة (شـجرة الـدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر).



الحملات الصليبية : تواريخها وأسماؤها ونتائجها

التاريخ / إسم الحملة الصليبية	النتائـــج
١٠٩٦م حملـــة الشعـــــب	دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م ٣ حملات صليبية ألمانية	مذابح اليهود دمرها المجريون
١٠٩٦م الحملة الصليبية الأولـــى	إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م الحملة اللومبـــارديـــة	دمرها قلج أرسلان
١١٠١ م الحملـــة النفرسيـــة	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٠١ م الحملـــة الأكيتانيـــة	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٤٧م الحملة الصليبية الثانيـــة	حصار دمشق
١١٨٩م الحملة الصليبية الثالثـــة	حتلال قبرص وعكا
١٢٠١م الحملة الصليبية الرابعـــة الضالة (ضدالمسيحيـــين)	نهب القسطنطينية وإنشاء كنيسوامبراطورية لاتينيـــة فيها
١٢١٧م الحملة الصليبية الخامســة	استعادة الصلـــــيب
١٢٢٨م الحملة الصليبية السادســة	استعادة أورشليم سلميا
١٢٤٨م الحملة الصليبية السابعـــة	أسر لويس التاســع فى المنصورة
١٢٧٠م الحملة الصليبية الثامنـــة	موت لويس التاســع أمام تونس

♣♣♣♣♣




الممـــــــالك والإمـــــــارات الصليبيـــــــــــــة

ثالثــا ــ الإجتياح المغــولى

ظهر فى القرن الثالث عشــر خطر آخر تهــدد العــالم الإســلامى بخــلاف خطــر الحملات الصليبية ، قادما هذه المرة من الشرق من وراء النهر وأقاصى آســيا ، ألا وهــو الخطر المغولى بقيادة جنكيزخان الرهيب الذى كان قد قهرالصين بالفعل ، وانطلــق غربــا يحرق ويدمر ولا يقف فى طريقه شئ . وفىَ سنة ١٢٢٠م استولى المغول علــى ســمرقند وبخارى ، وفى منتصف القرن كانوا قد استولوا على روسيا ووسط أوروبا وشــمال إيــران والقوقاز، وفى ١٢٥٨م غــزوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد بقيادة هولاكو وأنهوا بقايــا الإمبراطورية العباسية التى كانت فى أوج عظمتها فى وقت من الأوقــات .

وأسفــرالإجتياح المغولى عن اضمحلال الشرق العربى الإسلامى اضمحلالا شــديدا . ذلك أن المغول فى اجتياحهم هذا قتلوا أعدادا غفيرة من الدارسين والعلماء ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال لاتــُعوض ، ونتيجة لذلك انمحى الكثير من التــراث الثقــافى والعلمــى والتكنولوجى الذى لا يقدّر بثمن مما كان يحتفــظ به الدارســون المســلمون ويضيفـــون إليــه طــوال ما يقرب من خمسمــائة سنة .

وانطلق المغول من العراق غربا إلى داخل سوريا ثم يمموا وجههــم شــطر مصــر . وللمرة الأولى يجــابه المغــول عدوا يرفض الخضوع لقوتهم الهائلة ، ألا وهــم المماليــك الذين تصدوا للمغول بقوتهم العسكرية والمعنوية الجبارة . ولأول مرة يتجرع المغول كــأس الهزيمة في معركة مفتوحة عام ١٢٦٠م ، واستطاع المماليك تعبــئة قــواتهم فــى الوقــت المناسب ، وساروا شرقا حيث درات رحى معركة عين جالوت الشهــــيرة بــالقرب مــن الناصرة بفلسطين واجتثــوا شأفــة المغــول .

وكباقى الشعوب التى وصلهــا الإسلام أو وصلت إليه ، دخل المغول فـــى الإســـلام جماعات وزرافـــاتا . وفى باكورة القـــرن الرابع عشر أعلـــن غـــازان خـــان محمـــود أن الإســـلام دين الدولة ، وظلل الإسلام الجزء الشرقى من الإمبراطوريـــة المغوليـــة ، وراح المغول يبنون المساجد والمدارس ويرسلون البعثات الدراسيـــة بكافة أنواعها .

رابعــا ــ التحالف الصليبى المغولى

لم يكن العقد الخامس من القرن الثالث عشـــر عقدا طبيعيا للعرب والمسلمين، إذ كانت الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ترزح تحت ضربات كل من المغول والصـــليبيين . ولـــم يدخـــر الصليبيون جهداً بعد هزيمتهم المشينة التى ألحقها بهم صلاح الدين فى معركة حطين عام ١١٨٧م كما تقدم ، بل تمكنوا فى الواقع من استعادة أغلب ما فقدوه أثناء حكـــم أولاده وأحفاده . إذ دب الخلاف بين سلاطـــين الأيوبيين ونشط الأخ يحارب أخـــاه ، وشمّر العـــم يحارب ابن أخيه ، ويدعو سلطان منهم إلى الجهاد لمحاربة ابن عمـــه ، وهكـــذا اســـتحالت الأسرة الأيوبية إلى أعداء يحارب بعضهم بعضا ، حتى وصل الأمر بالسلطـــان الكامل ابن أخى صلاح الدين إلى إعـــادة القدس إلى الصليبيين دون قتال كى يساعدوه فى حربـــه مـــع أخوتـــه .

ولم يكن هناك ســـوى بصيص أمل للمسلمين انبعث من القـــاهرة . ذلـــك أن الملـــك الصالح نجم الدين أيوب ، الذى يعتـــبره المؤرخون أفضل ملك فى الأسرة الحاكمة الأيوبية ، كان فى حركة لا تهدأ ، يقود جيوشـــه لمحاربة الصليبيين . وفى ١٢٤٤م خـــاض معركـــة

حاسمة استعاد على أثـرها القدس وعسقلان وأعاد توحيد سوريـا مـع مملكتـه . وكـان لانتصاراته أثرها فى أوروبا التى أدركـت أن الطريق الى القدس يمر بالقاهرة ، ومن ثـم ، واستجابة للنداء الذي أطلقه مجمع ليون الكنسى سنة ١٢٤٨م ، خرج الملك لـويس التاسـع الفرنسى فيما يعرف بالحملة الصليبيـة السابعة بتنسيق كامل مع البابـا إينوسنت الرابـع .

وفى واقـع الأمر، لم تكن حملة لويس التاسع تستهدف إستعادة القدس والقضاء علـى مصـر باعتبارها القاعدة العسـكرية الرئيسـية والمصـدر الرئيسى للقـوة البشريـة وحسـب، وإنما كانت تستهدف كذلك إنشاء تحالف مع المغول للإحاطة بالعالم الإسلامى من الشرق والغرب كما سوف يتضح من الصفحات التاليـة .

♣♣♣♣♣





جنكـــيز خـــان مؤســـس الإمبراطورية المغولية



الفصل الثالـــث

جنكـــيز خـــان

حضـــارة الجـــلادين



١ـ إعتـــذار للحضـــارة

٢ـ جنكيز خـــــان

٣ـ جنيكيز خان يبدأ الإمبراطورية

٤ـ توسيع الإمبراطورية

٥ـ محمد شاه الخوارزمى

٦ـ هزيمة محمد شاه الخوارزمي

٧ـ جلال الدين بن محمد شاه الخوارزمى

٨ـ المغول فى إيران وجورجيـــا

٩ـ موت جنكيز خـــان

♣♣♣♣♣



١ ــ إعتــذار للحضــارة

من غير اللائق أن يقترن لفظ الحضارة بلفظ الجلادين ، فحق علينــا أن نبــدأ بهــذا الإعتذار لكلمة الحضارة ومفهومها جميعــا .

فالحضارة كما جاء تعريفها بالمعاجم هى :

"حالة مثالية للثقافة الإنسانية تخلو تماما من البربرية والسلوك غير الرشيد ، وتستخدم على نحو أمثل الموارد الإنسانية والروحانية والثقافية والبدنية ، وتسعى إلى كامل تكيف الفرد فى الإطار الإجتماعى ."

وفى تعريف آخرهى : "صنع المتحضر أو صيرورته ؛ وهى حالة يــتم الوصول إليها فى هذه العملية ؛ وهى مرحلة ، خاصة مرحلة متقدمــة ، فى التطور الإجتمــاعى . وهــى كذلك لفظ يقصد به الدول المتحضرة" .

وعلى ذلك فالحضارة بعيدة كل البعد عن الجلادين وما يتعلق بهــم . وقــد يتســاءل البعض: لماذا إذن هذا الإقتران ، حضارة الجلادين ، وكان الأحرى وضع الصفة المناســبة بجوار كلمة الجلادين ، مثلا وحشية الجلادين ، أو شراسة الجلادين ، أو ما إلى ذلــك مــن صفات .

بيد أن القارئ سوف يرى فى هذا الكتاب كيف كانــت عاصــمة الجلاديــن تســتقبل السفارات والمبعوثين من كافة دول العالم ، سفراء الملك لويس التاسع الفرنسى ، وسفراء بابا روما ، بل كانت تستقبل الأمراء والملوك ، هيثوم ملك أرمينيــا ، وبدرالدين لؤلؤ صــاحب الموصل ، وغيرهم كثير. وكلهم جاءوا لتقديم فروض الولاء والطاعة للجلاديــن ، جــاءوا

للإستسلام محملين بالهدايا وعروض التحالف وتقديم التسهيلات بعدما اجتاح الجلادون أغلب العالم المعروف آنذاك .

ولا يقتصر الإعتذار للحضارة على جلادى القرن الثالث عشر وحسب ، وإنمـا يمتـد الإعتذار للحضارة ليشمل جلادي القرن العشرين أيضا . فعندما دخل المغول بغداد ، دخلوها بالسيوف والرماح ، أما الذين دخلوها فى القرن العشرين فقد أمطروها بآلاف الأطنان مـن القنابل المدمرة ، ويكاد تخريب الحضارة الإسلامية فى بغداد القرن الثالث عشـر يتضـاءل خجلا أمام تخريبها فى القرن العشرين بوساطة قنابل أبناء العم سام ، الذين راحوا ينسـفون الجسور ، ووزارات الخدمات وما إلى ذلك من البنية الأساسية، فتنهار المنازل على ساكنيها، بل وتصل القنابل إلى المخابى تحت الأرض فتقضى علـى النسـاء والأطفـال والشـيوخ والمرضى ، كما شاهد أبناء هذا القرن على شاشات التلفزة فى مشارق الأرض ومغاربها .

والحضارة تائهـة حائرة ، بين جلادى الأمس وجلادى اليوم . وجلادو الأمـس مـن المغول لم تكن الحضارة تعنيهم ، لم يفهموا معنى الحضارة ، أما جلادو اليوم أبناء العم سام فهم يقتلون بإسم الحضارة والحرية والديمقراطية .

ويبدوأن جلادى اليوم الأمريكيين قد رضعوا البربرية وشـبّوا فى مهـد التـوحش وتمرغـوا فى بحبوحـة القسوة منذ أن وطـأت أقدام أجدادهم الأرض الأمريكية ذاتها حينما اكتُـشِـفت .

وفى عجالة سريعة نلقى نظرة على تطورات أصحاب تلك الغابـة المتوحشة :

✱ فأول البربريات الأمريكية ذبح الهنود الحمر، أصحاب البلد الأصليين .

✱ وثانى البربريات الأمريكية قتل مئات الآلاف من العمال المدنيـين فى مدينة كروب الصناعية فى ألمانيا النازية وهم نائمون فى مدينتهم السكنية . وكما قال ألفريد كروب نفسه (وهو سليل عائلة كروب صاحبة المصانع) فى مذكراته فى هـذه المناسـبة : "إن مجـرم الحرب لا بد أن يكون مهزوما ليصبح مجرم حرب ".

✱ وثالث البربريات الأمريكية ضرب مدينتى هيروشما ونجازاكى بالقنابـل الذريـة ، وتدمير كل شئ حيّ فيهما ، ويكفى الأمريكيين فخرا أنهم الشعب الوحيد الذي انفرد باستخدام السلاح الذري ، أو سلاح الدمارالشامل ، كما يحلو لهم هم أن يطلقوا عليه .

✱ ورابع البربريات الأمريكية قتل آلاف الأبرياء فى فييتنام .

✱ وخامس البربريات الأمريكية آلاف أطنان القنابل ، أسقطها الوالد بوش على بغـداد .

✱ وسادس البربريات الأمريكية آلاف أطنان القنابل ، أسقطها الولد بوش على بغـداد .

✱ وقائمـة البربريات طويلة لا مجال للإسهاب فيها الآن فى هذه الصفحات .

كان ضروريـــا الإعتذار للحضـــارة .





جنكيز خـــان مؤسس الإمبراطورية المغوليــــــة



٢ ــ جنكيز خـــــان

فى سنة ١١٦٧م ، أي قبل عشرين سنة من استعادة صلاح الــدين الأيــوبى لمدينـــة القدس، وفى مكان قصى على نهر أونون فى شمال شرقى آسيــا ، رزق زعيم مغولى يدعى بيزوغاي ، وزوجته هويلون بطفل أسمياه تيموجين ، ولكنه يعرف تاريخيا باســمه الآخــر جنكيز خان . وكان المغول مجموعة من القبائلَ تعيش على ضفاف نهر أمور الأعلى وفـــى حرب مستمرة مع جيرانهم التــتار الشرقيين .

وأفلح بيزوغاي ، والد تيموجين ــ جنكيز خان ــ فى اكتساب محبـــة أغلــب قبائــل المغول واستمالتهم . وفى سنة ١١٧٠م ، وقبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، مات من أثر السم الذي دسّه فى طعامه أحد التتريين الرحل أثناء تناوله العشاء معهم . وكان أكبر أبنائه ، تيموجين ، فى التاسعة من عمره آنذاك .

وتمكنت أرملة بيزوغاي النشطة ، هويلون ، من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير تيموجين على قبائل أبيه . وهكذا بدا زعيما وهو ما يزال صغيرا ، وكان متحجر القلب وفيه غلظة إزاء أنداده وفيما بين أفراد أسرته . وسرعان ما شب عن الطوق ودخل فى حــروب انتزع بها سيطرته على المغول ، وحدث أن قبيلة تايشيوت أوقعته فى الأسر لفترة ، كما أسر الأتراك المركيت زوجته بورك التى تزوجها وهو فى السابعة عشرة من عمره . وفى نحــو عام ١١٩٤م انتخب تيموجــين ملكا أو خانا للمغول جميعا ، واتخذ اسم جنكيز ، أى القوي . وبعد ذلك مباشرة اعترف الإمبراطور الصينى بجنكيز أميرا أعظم للمغول وضـــمن تحالفــه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين . ودارت حروب سريعة أسفرت عن خضوع التتــار لحكم جنكيز خان .

وفى عام ١١٩٩م ضم جنكيز خان قواته إلى قوات طغرل خان زعيم الكيرات لمحاربة أتراك التايمان ، والآن بات طغرل أعظم عواهل السهوب الشرقية الفسيحة ، وكان لقبه (وانج ــ خان أونج ــ خان) ، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولا إلى "يوهانس Johannes" ، وهو لقب أكثر ألفة ورخامة ، وبذا جعله مرشحا للقيام بدور القسيس جون ، أو جون المشيخى Prester John ، وهو الملك والقس المسيحى الذي تقول الأسطورة إنه حكم فى الشرق الأقصى وإثيوبيا . على أن طغرل كان رجلا خؤونا متعطشا للدماء يفتقر تماما إلى الفضائل المسيحية ، ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين . وفى سنة ١٢٠٣م تشاجر مع جنكيز خان ، وهزم فى أحد المعارك هزيمة ماحقه وقتل طغرل أثناء فراره ، واستسلم أفراد أسرته ، وضم جنكيز خان البلاد كلها .

وفى عام ١٢٠٤م دارت حروب لمدة عامين انتهت بترسيخ مكانه جنكيز خان كسيد أعلى على جميع القبائل فى المناطق الممتدة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفى ١٢٠٦م انعقد (كورتلاي) أو مؤتمر عام لجميع القبائل الخاضعة له ، وأكد لقبه الملكى ، وأعلن أن شعبه ينبغى أن يُعرف بإسم المغول .



٣ ــ جنيكيز خان يبدأ الإمبراطورية

لم يتدخل جنكيز خان فى تظام القبائل التى يحكمها ويتوارثها رؤساؤها . وإنما فرض سيادة عائلته ، ألتين أوروك ، أو العشيرة الذهبية ، على القبائل الأخرى بعدما أقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه المحيطون به . ووهب العشائر أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التى قاومته وهزمها ، كما منح أصدقاءه ألوف العبيد .

وفى المؤتمر (كورتلاي) الذى انعقد سنة ١٢٠٦م ، حصلت كل من أمه هويلون وأخيه تيموغ أوتبشين على عشرة آلاف أسرة من العبيد ، ولكل من أبنائه الصغارخمسة أو ستة آلاف أسرة . أما القبائل ، وحتى المدن ، التى استسلمت له طواعية ، فتركت وشأنها دون تدخل طالما احترمت القوانين المهيمنة ، ودفعت الضرائب الإتاوات الباهظة .

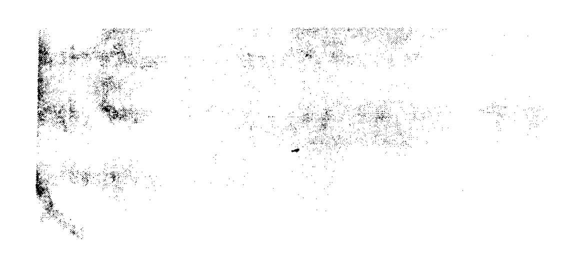
وأصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تكون فوق كل القوانين المألوفة فى السهوب والسهول ، وقد صدرت تلك القوانين على مراحل طوال فترة حكمه ، وتحددت فيها حقوق ومزايا رؤساء القبائل ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات الواجبة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية .

وبعد أن وضع جنكيز خان نظام امبراطوريته ، شرع فى توسيعها . فلديه الآن جيش كبير اهتم بتنظيمه اهتماما كبيرا . فهناك الخدمة العسكرية الإجبارية على جميع أفراد القبائل الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين ، وذلك طبقا للتقاليد المغولية والتركية . وقد جُبل رجال القبائل على الطاعة العمياء ، ويعلم زعماء القبائل من التجربة المريرة

أن عليهم إطاعة الخان . ولأنهم من القبائل الرحل ، كان الزعماء يتطلعون إلى اجتياز الآفاق .

كان جيشا من الخيالة والرماة وحملة الرماح على ظهور الجياد السريعة والعسكر . رجال اعتادوا على خشونة العيش وعلى الترحال عبر الصحارى بمقادير قليلة من الطعام والشراب . ولم يكن معروفا من قبل أن تلتقى سرعة الحركة مع النظام ومع الأعداد الغفير .







فارس مغـــولى

٤ ــ توسيع الإمبراطورية

كانت هناك ثلاث دول كبرى تحيط بالمغول : من الشـــرق الإمبراطوريـــة الصـــينية بعاصمتها بكين ؛ وبطول المناطق العليا على النهـــر الأصـــفر كانـــت مملكـــة هسياهســـى التانجوتيّة، تحكمها أسرة حاكمة من أصل تبـــتي ، رعاياها مغوليون يتألفون من خليط مـــن المغول والأتراك والصينيين ؛ وفى الجنوب الَغربى مملكة كاراخايتاي ، التى تتـــألف مـــن جماعات رحـّـل بوذيون من منشوريا ، شردهم أباطرة الصين فى بداية القرن الثانى عشر، والأتراك المسلمين فى باركاند وخوتان .

وبدأ جنكيز خان بمهاجمة أضعف الممالك الثلاث ، مملكة هسياهسى ، وفـــى ١٢١٢م قبل ملكها سيادته . ثم غـــزا الإمبراطورية الصينية ، وبعد عدة معارك طاحنة ضم الريـــف كله حتى البحر الأصفر وشانتونج . وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ، فلم يكن المغول معتادين على فن الحصار ولا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، إلى أن التحق مهندس صينى يدعى ليوبولين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م ، وبعد أن تعلـــم المغـــول اقتحام الأسوار والقلاع ، أصبح الإمبراطور الصينى من أتباع جنكيز خان الذى كـــان قـــد استولى قبل ذلك فى ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية ، واعترفـــت كوريـــا بالســـيادة المغولية . وفى تلك الأثناء وســـّع جنكيزخان غزواته باتجاه الجنوب الغربى ، وبذا أصـــبح على اتصال مباشر بأراضى الخوارزميين .

٥ ــ محمد شاه الخوارزمى

كانت الإمبراطورية الخوارزمية في أوج عظمتها ، وعلى رأسها محمد شاه الذى كان سيدا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسى إلى بحر الآرال والبامير والإندوس فى أرض ما وراء النهر *Transoxiana* الواقعة شرقى نهر جيحون (الأموداريا *Oxus River*) وغرب نهر سيحون (السرداريا *Jaxarter River*) (حاليا فى أوزبكستان وجــزء مــن تركمانســتان وقازاخستـــان) .

وأرسل جنكيز خان إلى محمد شاه يطلب الإعتراف به سيدا أعلا باعتباره خان الأمــم التركية المغولية . فشعر محمد شاه بالإهانة لهذا الطلــب . وفى ١٢١٨م ارتحلت من منغوليا قافلــة كبيرة من التجارالمسلمين ومعهم مائة مغولى مرسلين فى بعثة خاصة إلـــى الــبلاط الخوارزمى . وفى أوترور الواقعة فى أراضى محمد شاه ، قتل الحاكم المحلـــى المســـافرين وسرق بضائعهم وأرسل نصفها إلى محمد شاه ، وكان ذلك استفزازا لجنكيز خـــان لا يقــدر على تجاهله . وفيما يلى رسالة أرسلها جنكيز خان بهذا الشأن :

رسالة جنكيز خان إلى خوارزم شاه

أرسل جنكيز خان تجارا إلى خراسان فقــتلهم نائبهـــا مـــن قبـــل خوارزم شاه فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يســـتعلمه عـــن هـــذا الأمر، وكان مما قال: مـــن المعهود من الملوك أن التجـــار لا يقتلـــون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك مـــا فيـــه التحـــف والأشياء النفيســـة . ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فأنت تنكره وتقـــتص مـــن نائبك . ولكن خوارزم شاه قتل رسول جنكيز خان .

(البدايـــة والنهاية لإبن كثير ج ١٣ – ١١٩) .

٦ ـ هزيمة محمد شاه الخوارزمي

قيل إن محمد شاه كان قادرا على دخول الحرب بنصف مليون جندى ، وفى وقت متأخر من صيف عام ١٢١٩م خرج جنكيز خان على رأس مئتى ألف رجل وأصبح على مبعدة ألف ميل من دياره ، وانضم إليه فى الطريق باتجاه الغرب ملوك من أتباعه ، مثل أمير الأوغور . ومكث محمد شاه بجيشه الرئيسى فى مدينتى ما وراء النهر العظيمتين بخارى وسمرقند ، بعد أن قسم جنوده بين خط سيحون (السرداريا) وممرات فرغانة ، إذ لم يكن واثقا من المكان الذي سوف يضرب فيه المغول ضربتهم .

وفى فبراير ١٢٢٠م تقدم جنكيزخان مع جيشه الرئيسى مباشرة إلى بخارى ، وسرعان ما فتح له المدنيون أبواب المدينة ، وقاوم الأتراك فى القلعة لأيام قليلة ، ثم ذبحوا عن آخرهم ومعهم أئمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم . ومن بخارى واصل جنكيز خان زحفه على سمرقند حيث انضم إليه أبناؤه . واستسلمت الحامية التركية من فورها راجية الإنضمام إلى جيش جنكيز خان الذى رأي أن هؤلاء الجنود لا يعتمد عليهم وغير جديرين بالثقة فقتلهم جميعا . وكان محمد شاه قد انسحب ، بعد أن فقد الثقة فى جنوده ، إلى عاصمته أورغبنج على ضفاف نهر جيحون (الأموداريا) بالقرب من كيفا . وأرسل جنكيز خان أبناءه لمحاصرة أورغبنج ، فهرب محمد شاه إلى خراسان يطارده أكثر قادة جنكيز خان ثقة ـ سوبوتاي وجيي ـ لكنه تمكن من الفرار من مطارديه إلى أن مات فى ديسمبر ١٢٢٠م فى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين كسير القلب وحيدا .

٧ ــ جلال الدين بن محمد شاه الخوارزمى

تمكن جلال الدين من الإنسحاب بجيشه فى فرغانة إلى أفغانستان ، وأوقع هزيمة ماحقة بالجيش المغولى المرسل لإخضاعه . فكان قتاله أفضل من قتال أبيه . وانتقل جنكيز خان نفسه عبر الأكسوس عابرا بلخ التى استسلمت له ، فأنقذت نفسها ، ثم إلى باميان فى أواسط كوش الهندية حيث صمدت القلعة ، وأثناء الحصار قتل حفيده الأثير لديه ــ موتوجين ــ فلما استولى على المدينة لم يترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفى ذلك الوقت زحف إبنه تولوي ، ومعه زوج ابنته توجوتشار غربا واستوليا على ميرف ، ودارت المذابح بحيث لم يبق على قيد الحياة سوى أربعمائة من أصحاب المهن الماهرين الذين أرسلوا إلى منغوليا . ثم استوليا على نيسابور ، وهناك قتل توجوتشار صهر جنكيز خان ، فلقيت المدينة نفس المصير وتولت أرملته شخصيا تنفيذ المذابح . وفى عام ١٢٢١م تقدم جنكيز خان خلال أفغانستان لمهاجمة جلال الدين وتمكن من تدمير الجيش الخوارزمى ، وهرب جلال الدين عبر النهر ولاذ بملك دلهى ، ووقع أبناؤه فى الأسر وقتلوا .

وأمضى جنكيز خان حوالى سنة فى أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التى سبق أن استسلمت للمغول قد ثارت بعد انتصار جلال الدين فى بارفان ، فحاصرها جيش مغولى بضعة أشهر واستولى عليها فى شهر يونية ١٢٢٢م ، وقتل سكانها وعددهم بضع مئات من الآلاف ، واستمرت المجزرة لأسبوع . وعاد جنكيز خان إلى أرض ما وراء النهر حيث نصّب حاكما خوارزميا ، مسعود بالاواش ، وأحاطه بمستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه ، وأرسل والد مسعود ، محمد بالاواش ، شرقا ليحكم بكين . وقد اتبع جنكيز خان تلك الوسيلة التشريفية لمزيد من ضمان ولاء مسعود . وفى ربيع عام ١٢٢٣م عاد

جنكيز خان عابرا نهر سيحون (السرداريا) وارتحل على مهل عبر السهوب ، ووصل إلـــى إرتيش فى صيف ١٢٢٤م ، ثم إلى وطنه فى الربيع التالى .

٨ ــ المغول فى إيران وجورجيـــــا

خلال عام ١٢٢٠م ، لم يتمكن القائدان ــ سوبوتاي وجبي ــ اللذان كانـــا يطـــاردان محمد شاه القبض عليه ، فانحرف القائدان غربا ، واحتلا الري القريبة من طهران ونهبهـــا جيشهما ، لكنهما أبقيا على حياة أغلب السكان ، وانتقلا بعد ذلك إلى مدينة قُـــم وقتلوا كل سكانها ، ولقيت مدينتا كاسفين وزينجان نفس المصير ؛ أما همدان فاستسلمت وأنقذت نفسها ودفعت إتاوة ضخمة ؛ وكذلك فعلت مدينة أذربيجان تجنبـــا للهجوم على تبريز . وواصـــل الجيش زحفه فى فبراير ١٢٢١م لمهاجمة جورجيا ، وهزم الملك جورج الرابع بـــن الملكـــة تمارا هزيمة نكراء فى خونانى الواقعة جنوب تفليس مباشرة ، وكانت كارثة لم يبـــرأ منهـــا الجيش الجورجى قـــط . وفى ١٢٢٢م خربوا مقاطعات جورجيا الشرقية ، وساروا بطـــول ساحل بحر قزوين وهزموا القوقازيين كذلك . وفى ٣١ مايو ١٢٢٢م دمروا جيشـــا روســـيا ضخما بقيادة أمراء كييف وجاليش وسمولينسكى ؛ ولم يتابعوا انتصاراتهم ، وإنما هـــاجموا منطقة القرم وانتهبوها ، ثم تحولوا شرقا ليهزموا جيشا من بلغار الكاما وخربوا بلدهم . وفى بداية ١٢٢٣م وصلوا إلى نهر سيحون (السرداريا) حيث انضموا إلى جنكيز خـــان الـــذى ابتهج بنجاح غزوات جيشـــه .

٩ ـ موت جنكيز خـــان

مات جنكيز خان سنة ١٢٢٧م ، وقد امتدت سيطرته من كوريا إلى فــارس ، ومــن المحيط الهندى إلى سهول سيبريا المتجمدة . ولم يحدث فى التاريخ الإنسانى من قبل أن كان لرجل مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة . على أن هذا الرجل يبقى لغــزا ؛ فقد قيل إنه كـــان طويل القامة وله عينان تشبهان عينى القط ، ولا شك فى أنه كان يتمتع بشخصية قوية لهـــا تأثيرها على من حوله . وكانت قدرته على التنظيم كبيرة ، يعرف كيف ينتقى الرجال ، وقد وضع قواعد للتقاليد والآداب المغولية ، وطهــّربلاده مــن اللصـــوص وقطـــاع الطـــرق ، وازدهرت التجارة تحت رعايته . لكنـــه كان شديد العنف بالغ القسوة ، ليس للحياة البشـــرية لدية أي اعتبار ، لا يعرف معنى التعاطف ولا يعى المعاناة الإنسانية ، ومن اليسير عليه أن يزهق أرواح الألوف ، وقد هلك ملايين البشر من قاطنى المدن فى حروبـــه ، ولـــم يســـلم القرويون . فقد شاهد الملايين من القرويين حقولهم وبساتينهم تتحول فى لحظات إلى خراب . هزأ بالإنسان وأقام إمبراطوريته على أشلاء إنسانية ، وثبت دعائم الإمبراطوريـــة بأعمـــدة البؤس الإنســـانى . وكان قد أطلق على نفســـه إسم :

(سوط الله المرسل لمعاقبة الإنسانية على آثامها) .





جنـــدي مغـــولي



الفصل الرابـــع

هــــولاكــــــو

مهـــارة الجـــلاد



١ـ هولاكـــو الجـــلاّد

٢ـ هولاكـــو يقضى على الحشـــاشين

٣ـ كارثـــة بغــــداد

٤ـ هولاكو فى ميافارقين

٥ـ هولاكـــو فى حلـــــب

٦ـ إستســـلام دمشـــــق

♣♣♣♣♣



١ - هولاكــو الجــلاّد

مر بنا موت جنكيز خان عام ١٢٢٧م ، وكانت الأعراف المغولية تقضــى بأحقيـــة الإبن الأكبر وذريته من بعده فى تولى الخانية الكبرى للمغول ، وبأحقيــة الأخ الأصــغرفى دعوة المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد للتصديق على الإستخلاف . بيد أن جنكيز خان خالف تلك الأعراف ومنح الخانية الكبرى لإبنه الثالث أوغوداي ، وبذا تخطى إبنه الأكبر يوجى ، وابنه الثانى باجاتاي الذي كان جنديا مقتدرا . وكان جنكيز خان يظن فى إبنه الثالــث أوغــوداي صبرا يساعده على أن يكون خانا أكبر، وأن لديه مهارة فى معاملة أتباعــه ؛ أمــا الإبــن الأصغر تولوي ، فكان بيده حسم الخلافات ودعوة المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد . وقد عمــل بوصية والده وشجع زعماء القبائل على إمضاء رغبات والده ، وبذا أصبح أوغوداي الخــان الأكبر . والتزم زعماء القبائل بتنفيذ القانون المغولى الامبراطورى ، والموافقة على قرارات حكومة الخان الأعلى فى العاصمة كاراكوم . واستمرت وحدة الإمبراطورية .

على أن الخان الأكبر أوغوداي مات فى العاصمة كاراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م، بينما الجيوش المغولية تحارب فى هنجاريا وكرواتيا وحتى البحــر الأدريــاتيكى . وحــدث خلاف فى الأســرة المغولية ، فتولت توراجينا خاتون ، أرملة أوغــوداي الوصاية ، وتولت إدارة الحكومة لخمس سنوات ، وكانت ذات طاقة ونشاط ، وبرغم أنها كانت مسيحية بالميلاد إلا أنها قربت أليها مسلما هو عبد الرحمن الذى اتهمته الشائعات بتعجيل وفاة أوغوداي .

ولم تهدأ الخلافات فى العائلة المغولية ، ورفض أحفاد أوغوداي حضــــور المــؤتمر (كوريلتاي) ، وتآمروا على أعضائه وهاجموهم وهم ســكاري ، وانــدلعت حــرب أهليــة

متقطعـــة استمرت عاما بكامله ، تمكن حفيد جنكيز خان ، مونغكا (ابـــن تولـــوى ، الإبـــن الأصغر لجنكيز خان) فى نهايتها من الإنتصار على أنداده جميعا .

وعهد مونغكا بالمقاطعات الشرقية إلى أخيه الثانى قوبلاي الذي راح يغـــزو الصـــين بصورة منسقة ، وكانت حكومة فارس من نصيب هولاكو ، الأخ الثالث للخان الأكبرمونغكا. وفيما يلى وصيـــّة مونغكا لأخيه هولاكو :

وصية منكوقا آن (مونغكا خان) لأخيه هولاكو

لما سلّمه قيادة الجيش الذى أرسله لفتح الغرب (غرب الصين)

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغى أن تسير من توران إلى إيران:

سر من توران إلى إيران مظفراً   واعل باسمك إلى الشمس الساطعـــة

وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه ، فى الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، فى الرقعة الممتدة مـــن جيحون حتى أقاصى بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك ؛ أما من يعصيك فأغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به . وابدأ بإقليم قيسان فى خراسان ، فخرب القلاع والحصون :

اجعل كِـــرْدوكوه وقلعـــة لنبه مر

بحيث يكون رأسهما إلى أسفل وجسدهما إلى أعلى

ولا تبق فى الدنيـــا قلعـــة قـــــط

ولا كومـــــة واحـــدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمـــة ، فتوجه إلى العـــراق ، وأزل مـــن طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيهـــا . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقـــا . أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغى أن تجعل رائـــدك فى جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون فـــى جميـــع الأحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمـــؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها فى الحـــال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصيرلك فيهـــا مصايف ومشاتى عديدة. وشاور دوقوزخـــاتون فـــى جميـــع القضـــايا والشؤون .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ ، ٢٣٦ – ٢٣٧)

٢ – هولاكو يقضى على الحشاشين

وفى ١٢٥٣م ، زحف هولاكو بقواته لاقتحام سوريا وكانت مهمتـــه إخضـــاع وضـــم الأراضى كجزء من مشروع جنكيز خان ـــ ألا وهو توحيد العالم أجمـــع تحـــت الســـيطرة المغولية .

ويختلف الدارسون حول الحجم الحقيقى لقوات هولاكو، بيد أنها كانت هائلة بمقـــاييس ذلك الزمان . فكان الحشد (أوردو) يضم ما يقرب من ٣٠٠ر٠٠٠ محارب على خيـــولهم ،

ومعهم نساء وأطفال وآخرين من غير المقاتلين بحيث بلغ عــدد الحشــد كلــه بالتقــديرات المتحفظة حوالى مليونين . ولــم يكن ذلك جيشا وإنما ما يشبه قــوة كاسحــــة أرســلتها الطبيعة ، لا يقف فى وجهها شئ .

ووصل هولاكو فارس سنة ١٢٥٦م ، وبدأ يعد العدة لثأر قديم . ذلك أنه قبــل ذلــك بأعوام قليلة اكتشف المغول مؤامرة لإرسال ٤٠٠ رجل من الحشاشــين المتنكرين المَهَرَة فى استخدام الخناجر إلى عاصمتهم كاراكورام، بتعليمات تقضى باغتيال الخان الأعظم . وكــان المذهب الإسماعيلى يعيــث فى المنطقة رعبا وفسادا طوال مائــة ســنة . وراح المنــادى المغولى ينادى على زعيــم الحشاشين ركن الدين : "أفسحوا لمن يمسك بأرواح الملوك بــين يديه" .

وكانت قلاع الحشاشين التى تسمى "عش النسر" والبالغ عددها مائتين تقع فى أمــاكن على الجبال لا سبيل إلى الوصول إليها ، واضطر حتى صلاح الدين نفسه إلى التوصل إلــى اتفاق معهم للصعوبة البالغة فى الوصول إلى عشش النســر هــذه .



بيان وجهه هولاكو إلى حكام إيران سنة ٦٥١ هـ
طالبا مساعدتهم فى إخضاع قلاع الملاحدة كألموت وغيرها

بناء على أمر القاآن فقد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وَجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ ـ ٢٤٠)

والآن انتقل المغول إلى جبال البروز جادين فى البحث عنهم . وطوال عامين تنقل المغول من قلعة إلى قلعة بكفاءة بالغة ؛ إذ كان المهندسون الصينيون ينصبون آلات الحصار ويستولون على عش النسر الواحد تلو الآخر . ولم يظهر هولاكو أية رحمة ، فعندما كانت تسقط قلعة ، كان يقتل ساكنيها سواء من القادرين أو الأطفال فى مهودهم . وبنهاية الحملة تم تدمير الحشاشين تدميرا كاملا ، واقتيد ركن الدين مكبلا فى السلاسل إلى الخان الأعظم الذي أعدمه .



٣- كارثــة بغــداد

فى شهــر فبرايرسنة ١٢٥٨م قام هولاكو بتحويل جيشه البالغ ٣٠٠ر٠٠٠ جندى من أزربيجان باتجاه الجنوب الغربى . وكانت أوامر الخان الأعظم واضحة ؛ فينبغى أن تكــون كافة الأراضى الواقعة إلى الجنوب الغربي تحت الحكم المغولى . وكانت المدينة الرئيسية فى الطريق هى بغداد ، لا يختلف أحد على أنها أعظم مدن العالم الإسلامــي .

وكان الخليفة المستنصر العباسى قد دأب على صد الغــارات المغوليــة عــن شــمال الرافدين ، أو أرض الجزيرة ، لسنوات عديدة . على أنه بموت المستنصر ســنة ١٢٤٢م ، تولى الخلافة إبنه المستعصم الذى كان طائشا جبانا يستغله وزراء شــداد يــديرون شــئون الخلافة بينما ركز المستعصم على الأمور الروحانية .

رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥م

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مــددا مــن الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آيــة الطاعــة والإتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجنــد والتمست العذر . ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليــد

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة   يخفى معها نور الشمس الساطعة

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعــالم والعالمين على يد الجيش المغولى منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم ، والذل

الذى حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملـوك الديالمـة والأتابكـة وغيرهم ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة ، وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقا بوجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخـذوا منها قاعدة ملك لهم ، فكيف يغلق فى وجهنا رغم مـا لنـا مـن قـدرة وسلطان ؟! ولقد نصحناك من قبل . والآن نقـول لـك: احـذر الحقـد والخصام ، ولا تضرب المخصف بقبضة يـدك ، ولا تلطـخ الشـمس بالوحل فتتعب . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لإبنه ويحضر لمقابلتنا . وإذا لـم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمانشاه والدواتـدار ليبلغـوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقـد ، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته . أما إذا لـم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدل ، فليعبئ الجند وليعـين سـاعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد . وحينما أقـود الجيش إلى بغداد ، مندفعا بسورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفيـا فـى السماء أو فى الأرض

فسوف أنزلك من الفلك الدوار

وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد

ولن أدع جيشا فى مملكتك

وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسـرتك فاستمع لنصـحى بمسـمع العقل والذكاء ، وإلا فسأرى كيف تكون ارادة الله .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ٢، ق ١ـ ٢٦٨)

ولقد أكد ابن العلقمى ، وزير المستعصم ، أن التهديد المغـــولى القـــادم ضـــئيل ، وأن دفاعات بغداد أكثر من كافية . وأخلد المستعصم إلى تأكيدات وزيره ، ولم يعبأ بتهـــديدات هولاكـــو التى ذكرها فى رسالته ، بل هزأ منها ، وكان رده على طلب هولاكـــو خـــالص السخرية والإستهجان . وخاصة ما كان هولاكو قد طلبه من أن يهدم أسوار بغداد .



رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شفهيا

شرف الدين ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكى النخجوانى

أيها الشاب الحديث ! المتمنى قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع العالم مغترا بيومين من الإقبال ، متوهما أن أمره قضاء مبرم وأمرمحكم . لماذا تطلب منا شيئا لم تجده :

كيف يمكن أن تتحكم فى النجم ونقيده بالرأي والجيش والسلاح

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى ، إننى حينما أشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم الأمور فى إيران ، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران ، وأضع كل شخص فى موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءا بالقلق والإضطراب ، غير أنى لا أريد الحقد والخصام ، ولا أن أشترى ضرر الناس وإيذاءهم . كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح ، خصوصا وأننى مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد . وإذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتى وحصونهم ، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان ، وإن كنت تريد الحرب والقتال :

فلا تتــوان لحظة ولا تعتــذر

إذا استقر رأيــك على الحرب

إن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة

وهـــم متأهبــون للقتـــــال

وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ٢ ، ق ١ ، ٢٦٩ – ٢٧٠)

رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله

وقد امتلأ غضبا للرسالة السابقـــــة

إن الله الأزلى رفع جنكيز خان ومنحنا وجــه الأرض كلــه مـــن الشرق إلى الغرب ، فكل من سار معنـــا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه ، ومن يفكر فـــى الخـــلاف والشـــقاق لا يستمتع بشئ من ذلك .

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلا: لقد فتنك حب الجاه والمال والعجــب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يـــؤثر فيـــك نصـــح الناصـــحين بالخير. وإن فى أذنيك وقرا فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك ، وإذن فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتـــال، فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد. ولو جري سيرالفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم.

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ ــ ٢٧١)

رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو

أرسلها له على يد بدرالدين قاضى بندنيجان

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحـــوال ، إذ أن كل ملك ــ حتى هذا العهد ــ قصد أسرة بنى العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلـــى يوم القيامة . وفى الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصغار الخليفـــة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه ، إذ مات بعلـــة الزحـــار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو ، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد السامانى وكيله وأرسله إلى بغداد لكى يجرى عليه الخليفة ما حكم به القضـــاء . وكذلك جاء البساسيرى بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض علـــى الخليفة وسجنه فى الحديقة . وفى بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذى كان خليفة الإسماعيلية فى مصر . وفى النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيرى فى جيش جـــرار وقبض عليه وقتله ، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقى بغداد فعاد منهزما وهلك فى الطريق . وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصدا استئصال هذه الأسرة فابتلى فى روابى استرآباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده ، وعاد خائبا خاسرا ثم لاقى ما لاقـــى

من جدك جنكيز خان فى جزيرة آيكسون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك فى قصد أسرة العباسيين ، فاحذرعين السوء من الزمان الغادر[١].

(جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ ـــ ٢٧٥ - ٢٧٦)

(١) هناك بعض الأخطاء التاريخية فى هذه الرسالة ، فالبساسيرى لم يأت بجيش من مصر ، وإنما اعتمد على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدري قريش . والخليفة العباسى القائم التجأ إلى مدينة الحديثة واستقر فى إحدى قلاعها ، ولم يسجن وإنما لجأ إلى أمير بدوى يدعى مهارش بن مجلى فأجاره . كما أن البساسيرى خطب فى بغداد للخليفة الفاطمى مدة سنة تقريبا .

ودون أن يدرى المستعصم ، كان وزيره العلقمى يتراسل سرا مع هولاكو يحثه على الهجوم واصفا حالة دفاعات المدينة بأنها واهية يرثى لها . وتؤكد الروايات الفارسية عن هذه الخيانة أن رئيس الوزراء ، وهو شيعى مسلم ، كان مدفوعا باستيائه من اضطهاد الخليفة لإخوانه من الشيعة . وفى ذات الوقت كان السفراء فى جيئة وذهوب يعرضون دفع إتاوة لهولاكو، رافضين الإستسلام ، بينما كان الجميع من وراء اسوار المدينة قد تملكهم الخوف والاضطراب بصورة متزايدة .

وأخيرا نفد صبر هولاكو من إطالة المناقشة مع المستعصم وبدأ عملياته العسكرية ، وشاركه فى العمليات العسكرية الجورجيون المسيحيون الذين وجدوا فرصة للسلب والنهب ــ ولمّا كانت زوجة هولاكو ، دوكوزخاتون ، مسيحية ، فقد اعتقد بعض الجورجيين اعتقادا حقيقيا أن المغول يقومون بحملة صليبية جديدة لتحرير "الأراضي المقدسة" من الكفرة .

رسالة قائد طلائع الجيش المغولى جوق إلى قبجاق قراسنقر ،

قائد طلائع جيش الخليفــة عند الزحف على بغداد

إننى وإياك من جنس واحد [كانا من أصــل خــوارزمى] وبعــد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاكو بســبب الفقــر والإضــطرار ، ودخلت فى طاعته ، وهو الآن يعاملنى معاملة طيبة ، فأنقذ أنت أيضــا حياتك وترفق بها ، واشفق على أولادك وقدم الطاعة حتى تأمن علــى دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم .

جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة:

من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أســرة العباســيين . لقــد شاهدت هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التى تترنح من كل ريح عاصف ، ثم إن العباسيين قد استمروا حكاما أكثر مــن خمســمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإذن فليس مــن العقل والكياسة أن تدعونى لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز خان , وكان الأولى بالود والمسالمة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعــد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فــإذا كــان هولاكو نادما حقا على فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همــدان ، لكــي نجعل الدواتدار شفيعا فيتضرع بدوره إلى الخليفة عله يزول ألمه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ ــ ٢٨٣ – ٢٨٤)

وعندما أصبح المغول على مقربة يوم واحد ، استيقظ المستعصم أخيرا على الخطر . وصدرت الأوامر بترميم الأسوار ، وأرسلت فرقة من ٢٠ر٠٠٠ جندى للتصدى للعدو .

رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائى

على بغداد مباشرة

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، وإلا فليتأهب للقتال . وليحضر
إلينا قبل كل شئ الوزير وليمانشاه والدواتدار ليسمعوا ما نقول .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ٢ ، ق١ ــ ٢٨٤)

وبينما كانت الفرقة فى معسكرها فى الحقول على مرمى البصر من المدينة ، فاجأهـا المغول بتدمير الجسور والسدود القريبة مما أغرق المعسكر . فغرق أغلب جنـود الفرقـة ، ومن لم يغرق قطع فرسان المغول أوصاله .

ثم انتقلت القوات المغولية ودخلت الضواحى . وفى الجانب الشرقى استخدم مهندسـو هولاكو أعدادا كبيرة من العبيد المساجين فى إنشاء خنادق ومتاريس أحاطت بالمدينة . وفى ٣٠ يناير بدأ قصف بغداد . وتحركت الأحداث بسرعة حتى أن المغول ، حينما تنفد الذخيرة التى تستجلب على عربات وتقطع من جبال حمرين على مبعدة ثلاثة أيام ، كانوا يستخدمون لوحدات المنجنيقات بقايا أشجار النخيل وقواعد المبانى من الضواحى المحتلـة .

وأرسل المستعصم رسالة إلى هولاكو يقبل فيها كل شروط الخان :

رسالة الخليفة النهائية لهولاكو بعد أن أيقن بالبوار بعد هزيمة جيشه وبدء بغداد بالسقوط في يد هولاكو، فأرسل الخليفة هذه الرسالة مع الجاثليق والوزير نيقولا ليقولا لهولاكو ما يلي :

إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ، ها أنذا قد لبيـت طلبـه
فينبغى أن يكون الملك عند كلمته .

جواب هولاكو للخليفة عن هذه الرسالة السابقة

إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همدان . أمـــا الآن فـــنحن على باب بغداد . وقد ثار بحر الإضطراب والفتنة ؛ فكيف أقنع بواحـــد ينبغى أن ترسل هؤلاء الثلاثة . يعنى بالثلاثـــة الدواتـــدار وسليمانشـــاه والوزير .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ٢ ، ق ١ ٢٨٧)

فات وقت المفاوضات . وكان أعنف القصف موجهـــا إلى الزاوية الجنوبية الشـــرقية من الأســـوار ، وفى أول فبراير ، وهو ثالث يوم للقصـــف ، تحول البرج الفارســـى إلـــى حطـــام . وفى اليوم الســـادس أمطر المغول السور الشرقى قصفـــا واستولوا عليه ، ومكثوا هنـــاك بينما كانت المدينـــة تستســـلم .

وظل المستعصم يرسل إلى هولاكو المبعوث تلو المبعوث مستعطفا وضع شـــروط ، ولكن بلا أذن صاغيـــة ، وبدلا من ذلك طلب هولاكو أن يقوم قائد جيش الخليفة والـــوزير بإصدار الأوامر بانسحاب الجيش الإسلامى من المدينة . ونفـــذ القائد والوزير المهمة ، بأن أعلنا على الجنود بأنه قد سمح لهم بالمسير إلى سوريا . وما أن تجمع الجيش فـــى الســـهل الواقع خارج الأسوار حتى أحاط بهم المغول وقتلوهم عن آخرهم ، ثم قتـــل قائـــد الجـــيش والوزير كذلك . وهكذا باتت بغداد بدون جندى واحد يدافع عنها ، ومن ثم أمست فى قبضـــة هولاكو تماما .

وفى العاشر من فبراير ذهب المستعصم وأولاده الثلاثة وحاشية من ٣٠٠٠ من النبلاء إلى معسكر هولاكو. واستقبلوا بكياسة . وأمرهولاكو المستعصم بأن يأمر السكان بالجلاء عن المدينة . فأرسل الخليفة رسلا إلى بغداد ينادى بأن كل من يرغب فى إنقاذ حياتــه عليــه أن يخرج من المدينة دون سلاح . وتدفــقت الحشود من الناس خارجة من بوابات المدينة ، وما أن تجمعوا معا فى أرض مكشوفة حتى ذبحوا بلا رحمة . ويختلف عدد القتلــى بــاختلاف المصدر الوارد فيه ، فالرواية الفارسية تتحدث عن عدد يتراوح بين ٨٠٠,٠٠٠ و مليــونين ذبحوا ، بينما ذكر هولاكو فى رسالة أرسلها إلى الملك الفرنسى لويس التاسع متباهيا بقتــل ٢٠٠,٠٠٠ شخص . وفى استعراض للأسلوب المغولى لبيان مدى النجــاح ، كــان جنــود المغول يقفــون فوق أسوار مدينة بغداد اليائســة فى انتظار الأوامر . وفى الثالث عشر من الشهر دخل المغول المدينة فى عدة صفوف من نقاط مختلفة ، وقيل لهم أن يفعلوا ما يحلــو لهم ، وكان ما يحلو لهم هو التدمير والتشويه المتعمــّد . فهدمت مســاجد رائعــة ؛ ونهــب القصر تلو القصر فى عربدة الهدم . ذلك كان خراب بغداد .

وعلى الرغم من ذلك ، ومن أن المدينة قد فقدت وضعها التجاري الرفيع ، فقد بقيــت مركزا ثقافيا وروحانيا وفكريا هاما . وكانت المدينة تضم أكثر من ثلاثين كلية ، من بينهــا الكلية المستنصرية التى كانت الجامعة الأفضل تجهيزا فى العالم . وكانت المدينة مرصّــعة بالمساجد الرائعة ، والمكتبات الكبيرة للأدب الفارسى والعربى ، فضلا عن قصــور عديــدة تنتمى إلى الخليفة وعائلته ، وربما كان بها كنز من أعظم الكنوز الشخصية ، لا يعثر علــى مثيله فى أي مكان آخر . لقد كانت بغداد أعظم مدينة استولى عليها المغــول فــى الشــرق

الأوسط ، وفى واحة الحضارة هذه ، أتى المغول بالسيف للذبح والتقتيل وبالشعلـــة للهـدم والتحريق . والقيت الكتب فى نهر دجلـــة حتى اسودت مما فيهـا من الحـبر .

واقتيد النســاء والأطفال الباقون على قيد الحياة ونقلـوا إلى كراكورام ، وكذلك ثروة خزانة بيت مال الخليفة .

وفى يوم ١٥ ، وبينما كان النهب على قَدم وساق، زار هولاكـو قصـر المستعصـم وأجبرالخليفة على إقامة مأدبة لقادة المغول أثناء أن كانت المدينة تحترق والصـرخات فـى الشوارع تتردد أصـداءها ليلا . كما أجبر المستعصم على تسليم كل كنـوزه مـن الـذهب والفضة والمجوهرات. وحذر أحد المغول المسلمين هولاكو من قتل المستعصم قائلا إنه إذا لمست قطرة من دم الخليفة الأرض فإن ذلك يعنى اللعنة الأبدية . وانتبـه هولاكو إلى هـذا التحذير . وبعد انتهاء العشاء أمر هولاكو بوضع الخليفـة وأولاده فـى سـجاجيد مغوليـة وخياطتها ، ثم أمر بأن تدوسهم حوافـر فرسـان المغول حتى ماتـوا . وهكذا لم يلمس دم الخليفة الأرض .

واستمرت آلام بغداد سبعة أيام ؛ وفى العشرين من الشهر أضطر هولاكو إلى الإبتعاد وضرب خيامه بعيدا عن المدينة بسبب الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث العفنـة المعلقة على الجدر ذات الأدخنة . وكان ذلك علامة على ما بقى مما كان يوما ما مدينة عظيمة لا مثيـل لها .

ويقال إن أعداد المسلمين الذين قتلوا فى تلك المذبحة الرهيبة ٠٠٠ر٨٠٠ر١، وطلـب هولاكو من المسيحيين أن يأكلوا الخنازير ويشربوا الخمر احتفالا ، بينما أجبـر المسـلمين

الباقين على قيد الحياة على أن يشتركوا فى مسابقات شرب الخمور، وكانت الخمور تـرش فى المساجد ، ولا يسمح لمؤذن بالأذان للصلاة .

٤ – هولاكو فى ميافارقين

وهكذا ، لم تعد العاصمة العباسية مركز القوة السياسية فى العالم الإسلامى، وإنما كانت ما تزال قلبه الفكرى .

واجتمعت مهارة الجلادين المغول وحمق الخلافـة ، أو بـالأحرى حمـق الخليفـة ، والخيانة ؛ بحيث احتـُلت بغداد ونُهبت وحُرقت من أساسهـا .

والآن عاد هولاكو إلى تبريز بينما صدم سقوط بغداد العالم الإسلامى كلـه . وتوافـد الأمراء والشيوخ على طول خط تقـدم المغول لتقديم فروض الـولاء والطاعـة . وبلغـت المهانة بالأمراء حدا يفوق الأحـلام ، إذ قدم أحد الأمراء ــ كاي قاووس ــ لهولاكـو زوج خف للأقدام وقد رسم علي النعلين صورة وجه الأمير حتى يتمكن هولاكو من أن يمشى على وجهـه .

ومن بين الذين تحالفوا مع هولاكو هيثوم ملك أرمينيا المسيحى الذي ظن أن المغـول يقومون بحملة صليبية جديدة لتحرير القدس من المسلمين . وشجع هذا المفهوم رئيس قـادة هولاكو ، كيربوغا ، الذي لم يكن مسيحيا وحسب ، وإنما ادعى أنه من ذرية أحد الحكمـاء الثلاثة الذين جاءوا من الشرق لتقديم الهدايا ليسوع الطفل . وبعد أن قام هيثوم بزيارة هولاكو

أرسل رسائل إلى جيرانه الصليبيين بخبرهم فيها بأن هولاكو على وشك أن يعمـّد مسيحيا ، وحثهم بشدة على أن يتحالفوا مع هذه القوة الجديدة وتحويلها إلى خدمة القضية الصليبية .

ولم يقف فى وجه المغول سوى الكامل محمد أمير ميافارقين الذى رد علـى رسـالة الأمير المغولى بما يلى بعد أن طالبه بالإستسلام :

رسالة الملك الكامل محمد أمير ميافارقين

لأمير الجيس المغولى

ينبغى ألا يضرب الأمير فى حديد بارد ، ولا يتوقع الشئ المستحيل ، إذ لا يوثق بوعدكـم ، وإننى لن أخدع بكلامكم المعسول ولن أخشـى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً . إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وتاج الدين إربل ؟ وقد جاء الملك الناصر لدين الله خصيص بأمانكم فرأي فى نهاية الأمر ما رأى ، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١-٣١٩)

وأرسل هولاكو جزءاً من جيشه إلى ميافارقين وبسرعة اختـرق أسـوارها ووقـف الكامل محمد يراقب الإجهاز على كل شئ حي . ثم ان المغول كتفوا الملك الكامل محمد بعد القبض عليه ، وراحوا يقطعون أجزاء من جسده ويشوونهـا على نيران أمامه ثم يضـعونها فى فمه ليأكلها قطعة قطعـة .

٥ - هولاكــو فى حلــب

وفى شهر سبتمبر ١٢٥٩م ، تحرك هولاكو مرة أخرى فى عملية خاطفة ، وجمع كل قواته الرابضة شرقي نهر دجلـــة ، وعبر بهم نهر الفرات على جسر من الطوافات صنع من القوارب فى مانبيج . وعلم السلطان الناصر صاحــب سوريا ، وهو الملــك الناصــر بــن العزيز بن الظاهر صاحب دمشق وحلب ، بتحركات المغول ، وكان قد عــرض الخضــوع للجيش المهاجم ، ولم يقبــل هولاكو بذلك لأن الخضوع لا يكفـــى ، وقيــل للســلطان إن " مصيره السقوط " .

بضع رسائل من هولاكو إلى الناصر الأيوبى

صاحب حلب ودمشق بعد سقوط بغــداد :

الرسالة الأولى : كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسى

أما بعد ــ فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين ، فدعونا ملكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا . وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيت فروح وريحـــان ، وإن أبيـــت فخـــزي وخسران ، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفـــه فتكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الـــدنيا وهـــم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من اتبع الهدى .

(جامع التواريخ للهمذانى جــ ٢ ، ق ١ ــ ٢٩٦)

الرسالة الثانية :

يعلم سلطان مصر ناصر، طال بقاؤه ، أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله . ثم خرج إلينـــا رؤســـاء البلـــد ومقدموها فكان قصارى كلامهم سببا لهلاك نفوس تســتحق الإهـــلاك . وأما ما كان من صاحب البلد فإنه خرّج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا بها فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهرا ووجدوا ما عملوا حاضرا . أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعى المانعات ورجالى المقاتلات . ولقد بلغنا أن شرذمة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلـــى جنابك لائذة .

أين المفر ولا مفر لهارب　　　ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضـــها وطولهـــا عرضها والسلام .

الرسالة الثالثـــة :

خدمة ملك ناصر ــ أطال عمره ــ أما بعد : فإنا فتحنـــا بغـــداد واستأصلنا مُلكها وملّكها . وكان ظن ، وقد ضن بالأموال ولـــم ينـــافس الرجال ، أن ملكه يبقى على تلك الحال وقد علا ذكره ونما قدره فخسف فى الكمال بدره

إذا تم أمر بـــدا نقصـــه　　　توقع زوالا إذا قيـــل تـــمّ

ونحن فى طلب الإزدياد على ممر الآباد ، فلا تكن كالذين نسـوا الله فأنساهم أنفسهم . وابد ما فى نفسك إما إمساك بمعروف أو تسـريح بإحسان . أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتنل بره . واسـع إليـه برجالك وأموالك ولا تعوق رسولنا والسلام .

ونشط الناصر فى الدفاع عن حلب ثم عاد جنوبا لتهيئة الدفاع عن دمشق . وفى يـوم ١٣ يناير ١٢٦٠م ، وصل الجيش المغولى البالغ عدد جنوده ٣٠٠ر٠٠٠ جندى إلى حلب . وأقام المهندسون المنجنيقات وسقطت المدينة فى غضون أيام . وعانت حلب نفـس مصـير بغداد . إذ قُـتل الرجال واقتيـدت النساء والأطفال إلى أسواق العبيد فى العاصمة كاراكورام . وصمدت قلعة المدينة بقيادة توران شاه المسن طوال شهر آخر ، وعندما يأست من الأمـل فى الإنقاذ استسلمت فى نهاية الأمر . وفى حركة نادرة رحيمة من هولاكو ، أمر بالإبقـاء على حياة توران شاه اعترافا بشجاعته ونظرا لتقدمه فى السن. وقُـتل أفراد الحامية جميعا.

رواية للشيخ قطب الدين في (ذيل مرآة الزمان):

ملحوظـة : المرجع الرئيس في التعرف على هذه الأحـداث هـو كتـاب البداية والنهاية للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابـن كثيـر، وكتاب الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري .

ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السـنة ، فحاصـروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان .

ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، ونهبوا الأموال ، وسبوا النساء والأطفال ، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد ، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وامتنعت عليه القلعة شهراً ثم استلموها بالأمان ، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب ، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً ، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة ، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا ، وإن كانت علينا فإن شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه . فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف ، فتعجب من ضعفهم وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد ، وكان ما كان بقدر الله سبحانه .

ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها رجلاً من العجم يدّعي أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له: خسروشاه ، فخرب أسوارها كمدينة حلب .

(قطب الدين ، ذيل مرآن الزمان ج/ص: ٢٥٤/١٣)

صفة أخذهم دمشق وزوال ملكهم عنها سريعاً

أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين ، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة .

٦ - استسلام دمشق

علمنا أن سلطان دمشق وحلب هو الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر. وكان مصير حلب ثقيلا على أهل دمشق الذين طردوا الناصر من المدينة ، وأعلنوا للمغول القادمين تسليمهم غير المشروط . ودخل هولاكو المدينة وبصحبته كيربوغا وهيثوم والأمير الصليبى بوهموند الرابع أمير أنطاكية الذى أخذ بنصيحة هيثوم . ولم يكن هولاكو يبالى قط بالمسائل الدينية ، ولكنه أجبر بوهمند ، وهو مسيحى لاتينى ، على تعيين بطرق أرثوذوكسى يونانى على رأس الكنيسة فى أنطاكية .

ويستطرد الشيخ قطب الدين قائلا :

وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد ، فقرئ بالميدان الأخضر ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب ، هذا والقلعة ممتنعة مستورة ، وفي أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة . فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها ، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة ، فنصب المنجانيق على القلعة من

غربيها ، وخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتــدارك .

فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت للســقوط ، فأجــابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها ، وأعالي بروجها ، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة . وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الــدين بــن الصــيرفي الحلبي ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: إيل سيان ، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى ، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظمهم جداً ، وزار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصولة بسببه .

وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب تومــا ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس النــاس ، وهــم ينــادون بشعارهم ، ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح . ويــذمون ديــن الإسلام وأهله فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ومعهم أواني فيهــا خمــر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً ، وقماقم ملآنــة خمــراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون بــه في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم .

ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان ورشوا عنده خمراً ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصــغير والكبيــر ،

واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكـاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم . فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله . ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت عامرة ولكن كان هـذا سـبب خرابها . أنهم ضربوا بالناقوس في كنيسة مريم : وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيراً مـن المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إبل سيان فـأهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .

فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وهذا كان في أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بـن العزيـز وهـو مقيـم في وطأة برزه ، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبنـاء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم ، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية ، ولكن الكلمة بين الجيـوش مختلفة غير مؤتلفة ، لما يريده الله عز وجل .

وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعـة أخيه شقيقه الملك الظاهر علي . فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر وساق الأمير ركن الدين بيبرس في أصحابه إلى ناحيـة غـزة ، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليـه ،

وأقطعه قليوب ، وأنزله بدار الوزارة ، وعظم شأنه لديه ، وإنمـا كـان حتفه على يديه .

(قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ج/ص: ١٣/٢٥٥)

وقد هرب الناصر إلى مصر ، لكن بعض جنود المغول أوقعوا به فى السامرة وانتهى الأمر باعتقاله بالقرب من غزة واقتيد مقيدا بالسلاسل إلى بلاط هولاكو . ووصـل مبعوثـو هولاكو إلى مصر وسلموا السلطان قطـز أمرا بالخضوع .

♣♣♣♣♣



الفصل الخامس

سيْفُ الدّين قُطُــزْ

الأســَدُ الهَصُــور

١- من سليل الملوك إلى مِملوك

٢- سيف الدين قطز سلطان مصر

٣- إنـــذار هولاكو إلى قطـــز

٤- قطـــز يأخـــذ بالشـــــورى

٥- موت الخان الأكبر مونغكا

٦- التحالف الصليبى المغولى

♣♣♣♣♣



١ – من سليل الملوك إلى مملوك

يحدثنا شمس الدين الجزري في تاريخه عن "سيف الدين قطز" قائلا:

"‥ لما كان في رِقِّ ابن العديم بدمشق، ضربه سيده وسبَّه بأبيه وجده ، فبكى ولم يأكل شيئًا سائر يومه ، فأمر سيده الفرّاش أن يترضاه ويطعمه ، فروى الفرّاش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لطمة؟

فقال قطز: إنما بكائي من سَبِّه لأبي وجدي وهما خير منه .

فقلت: من أبوك؟ واحد كافر؟!‥

فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك ، فسكت وترضيته" .

كما يروي أنه أخبَر في صغره أحد أقرانه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بشَّره بأنه سيملك مصر ويكسر المغول .

وهذه الرواية ، وإن كانت تحيطها الشكوك ، فإنها تدل على أن قطز كان يعتبر نفسه صاحب رسالة دينية ، وأن له دورًا في مسيرة التاريخ ، وأنه سوف يغير الواقع المؤسف الذي يعيش فيه .

ولقد كان سيف الدين قطز عبدا لرجل يسمى "ابن العديم" بدمشق ثم بِيع من تاجر إلى آخر حتى انتهى إلى "عز الدين أيبك" من أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر . وتدرج في

المناصب حتى صار قائدًا لجند أيبك ، ثم قائدًا للجيوش عندما تولى "عز الدين أيبك" السلطنة مع شجرة الدر .

ومن ثم ، واستنادا إلى رواية المؤرخ شمس الدين الجزرى ، فإن الاسم الأصلي لسيف الدين قطز هو محمود بن ممدود ، وهوابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى علمنا أنه تصدى للمغول بعد وفاة أبيه وانتصرعليهم فى عدة معارك ، واسترد منهم بعض المدن التي كانوا قد استولوا عليها . لكنه لم يجد عونا ممن حوله من المماليك ولا من الخلافة العباسية التى تخلت عنه فى صراعه مع المغول دون أن تمد إليه يدا ، إلى أن تمكنت جحافل المغول سنة (١٢٣١م) من القضاء على دولته في إقليم كرمان جنوبي إيران حاليا ، ثم لقي حتفه وحيدا شريدا .

وكان قطز من بين الأطفال الباقين على قيد الحياة ممن أخذهم المغول وباعوهم فى دمشق . ومضت حياته مثل غيره من المماليك الذين تبرز مواهب البعض منهم فترتفع بهم إلى القمة وتولي السلطة ، أو تقصر مواهبهم فلا ترتفع بهم إلى هذا العلو الكبير ، أو تضيئ في البعض منهم قدرات تجعل منهم أمراء فى الجيش أو خارجة .

مر بنا فى الحديث عن نشأة المماليك ، وفى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، أنه بعد نهاية الحكم الأيوبي في مصر بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تربعت شجرة الدر على عرش السلطنة بعد أن اتفقت كلمة المماليك على تأييدها سلطانة للبلاد ، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي قط . وقد تخلت شجرة الدر عن السلطنة بعد اعتراض الخليفة العباسى وصدور فتوى إمام المسلمين بأن الشرع الإسلامى لا يتفق مع حكم المرأة للمسلمين، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في القتال الدائر بين مصر وجنود الفرنج

بقيـــادة الملك لويس التاسع فى المنصورة . ولذا دفع المماليك بالأمير المملوكى عز الــدين أيبك إلى مركز الزعامة لديهم وباركوا زواجه من شجرة الدر و أصبح سلطانا وتلقب باســم الملك المعز عز الدين أيبك .

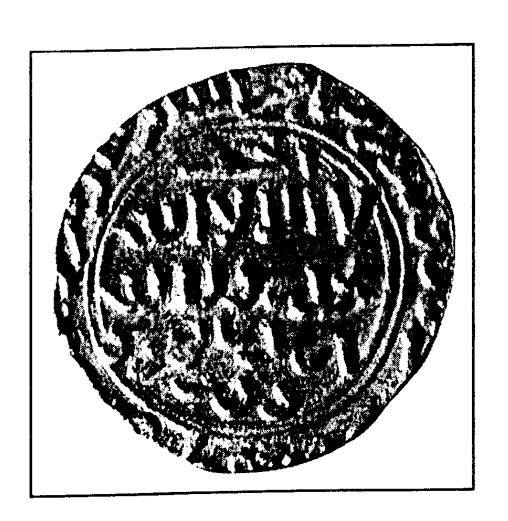
على أن الصراع بين المماليك وبين السلطان المملوكى الجديد تفاقم في ظل ازدياد نفوذ زعيم المماليك أقطاي ، الذي أظهر استخفافه بالسلطان الجديد ، المعز، وراح يظهر وحوله رجاله ومماليكه في أبهة الملوك ، وبالغ في ازدرائه للسلطان فلا يذكره إلا باسمه المجــرد ، أيبك ، إلى أن طمعت نفسه فى السلطنة ، فاستشعر السلطان عزالدين أيبك الخــوف علـــى عرشه ، فعزم على التخلص منه ، وأعد خطة لذلك اشترك في تنفيذها أكبر مماليكه ســيف الدين قطز، فكان ذلك أول ظهور له على صفحات التاريخ . وبدأ منذ آنذاك طريقــه نحــو القمـــة ، إذ تمكن السلطان عزالدين أيبك من التخلص من غريمه أقطـــاي ، ونكـّـل ببعض أمراء المماليك فهرب البعض من مصر .

٢ – سيف الدين قطز سلطان مصر

كما مر بنا فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، "شجرة الدر قـــاهرة الملـــوك ومنقـــذة مصر" أن أيبك قـــُتل هو وزوجته شجرة الدر فى ظروف الإضطراب المملوكى الذي ســـاد البلاد ، ونصّب المماليك نور الدين علي بن أيبك سلطانا على مصر ، وكان صبيا لا يصلح لمباشرة الحكم ، الأمر الذي جعل مقاليد البلاد في يد سيف الدين قطز ، ومن ثم بدأ نجمه في الظهور، وقام بنشر الأمن في البلاد فاستقرت الأمور ، وأحباط محاولات الأيوبيين اســـترداد مصر من أيدي المماليك ، فزاد ذلك من قوة إحكام قبضتـــه على البلاد .

وفى تلك الأثناء كان المغول قد استولوا على أغلب العالم الإسلامى وخربــوا بغــداد واحتلوا سوريا ، وأصبحوا الآن يعدون العدة مع حلفائهم لصليبيين فى مملكة عكــا ومــدن الساحل الفلسطينى للإنقضاض على مصر والقضاء نهائيا على الإسلام والمسلمين فى العــالم أجمع . وكانت الأخبار السيئة تتوالى على القاهرة من سقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصــم بالله ، إلى تحرك جحافل المغول نحو الشام التي تساقطت مدنها الكبرى في يد هولاكو. كانت هذه الأنباء تزيد القلق في مصر وترفع الإحساس بالخوف من أن تصــبح عاقبــة مصــر كالشام.

وكان قطز وصيًا على المنصور نورالدين على بن أيبك بعد مقتل أبيه أيبك وشــجرة الدر . وقد استشار كبار رجال الدولة والعلماء في أمور البلاد في حضور المنصور نورالدين على بن أيبــك ، وانصرف المنصور عن المجلس دون أن ينطق بكلمة ، مما أثــار رجــال الدولة. فأشاروا على قطز بعزله وتولي أمر البلاد ؛ فاستجاب لهم قطـــز وانتهــز فرصـــة خروج الأمراء إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية ، وقبض عليه واعتقله بالقلعـــة هـــو وأسرته في ١٢ من نوفمبر ١٢٥٩م، كما قام باعتقال مجموعة من أمراء المماليك الموالين لعز الدين أيبك وابنه ، ووضع على قيادة الجيوش ركن الدين بيبرس ، وبــدأ فــي ترتيــب أوضاع السلطنة ، بعد أن بارك كبارُ الأمراء هذه الخطوة ؛ لإدراكهم أن قتال المغــول لا يصلح بغير سلطان قوي. وصارحهم قــطز بأن الأمر سيؤول إليهم لاختيار من يريدونه بعد تحقيق النصر على العدو، وبدأ في اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم حكمه استعدادًا للقــاء المغول . وهكذا تولى سيف الدين قطــز سلطنـــة مصر كي يتمكن من إعداد البلاد للتصدى لهذا العدو الذي اجتاح آسيــا وشرق أوروبا كالسيل الجارف الذى لا يقف فى طريقــه شئ .



دينار قطز

متحف الفن الإسلامى ، القاهرة

محفور على هذا الدينار الذهبى اسم المظفّـــر قطز

ومزين بالخط النسخ على كل من الوجهين بالعبارة الآتية :

المظفّــر قطز سيف الدنيا والدين

وقد ضرب فى الإسكندرية التى كانت مركزا تجاريا هاما

فى كل من الفترتين الفاطمية المملوكية .

٣ - إنذارا هولاكـــو إلى قطـــز

كان خان المغول الأكبر ، مونغكا قد أمر أخاه هولاكو فى وصيته أن يضم إلى أراضى الخانيـــة "الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر" . وها هو هولاكو قد وصـــل إلى آخر نقطة ، مصر ، تنفيذا لأوامر أخيه الخان الأكبر مونغكا ، وتحقيقا لرغبـــة جـــدهما جنكيز خان بالسيطرة على العالم كله . وبادر كالمعتاد بإرسال مبعوثيه برسالة إلى قطز .

رسالة هولاكو إلى سلطان مصر قطــز

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلـــى هـــذا الإقلـــيم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطـــز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبـــه . فلكم بجميع البـــلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجـــــر فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشـــف الغطـــاء فتنـــدموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأي أرض تأويكم وأي طريـــق تنجـــيكم وأي بلاد تنجيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا مـــن مهابتنـــا منـــاص. فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنـــا كالجبـــال .

وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفــع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عنــد كــلام . وخنتم العهود والأيمان، وفشــا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فــي الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فــلا تهلكــوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفــرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمــور المقــدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليــل ، وبغــي الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطــاب وأســرعوا بــرد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شــرارها ، فــلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بــأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى مــن أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاوون قــد ... أتى بحد سيوف تنتضى وبواتر

يصير أعز القوم منها أذلــة ... ويلحق أطفالا لهــم بالأكابــــر

(كتاب السلوك للمقريزي جـ١ ، ق ٢ ، ٤٢٧ – ٤٢٩)

ويحدثنا المؤرخ دافيد ي . تشانز David W. Tschanz فى تاريخه واصفا بأسـلوب شيـّق ما حدث فى ذلك اليوم الذي عرض فيه مبعوثو هولاكو على قطز رسـالتهم السـابق ذكرها ، وقد تناولنا روايته بعد ترجمتها بما يلزم من إعادة صياغـة أسلوبها .

"كانت قاهرة القرن الثالث عشر تتألق كجوهرة على ضفاف النيل، وقد أفسح شتاء عام ١٢٦٠م ومضى لحلول الربيع ثم أفسح الربيع هـو الآخر لأول لمسة من لمسات الصيف الحار . وكان سكان القـاهرة قـد بدأو يباشرون أعمالهم اليومية دون أن يدركوا أن هناك شيئا غير عادي يحدث فى القصر السلطانى . وتمتم قليل منهم ما سمعوا مـن إشـاعات وهم يحدقون فى قصر السلطان ويتفكرون فى ما يـدور وراء أبـواب القصر ، وفى هذه الحركة الدؤوبة التى تدل على إهتمام السلطان سـيف الدين قطزوقادته بالوفد الأجنبى الموجود حاليا فى القصـر.

وتململ قطز فى مجلسه وحدق فـى هـؤلاء الرجـال الأربعـة الجالسين أمامه وقد امتلأ قلبه بمزيج من الكراهية والإشمئزاز . وكـان المندوبون قد وفدوا من الأمير المغولى هولاكو ووضعوا أمامـه تلـك الرسالة التى كان أسلوبها بعيدا كل البعد عن الكياسة ، ودلت علـى أن مرسلها متعجرف مغرورعلى نحو لا يخاطب به رئيس دولة رئيس دولة آخـر .

وللحظات ليست بالقصير ظل سفراء المغول ينظرون مليا فى وجه قطز فى جهامه وتحـدّ ، وكذلك كان هو يتفحصهم وفى نفسه ما فيهـا

من مشاعر تعتمل وأفكار تعتلج . ثم نهض قطز وغادر المجلس آمــراً قادته أن يتبعوه . أما سفراء المغول فقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة ، وكأنهم على ثقة من بلوغ غايتهــم .

وعقد قطز مع القادة مجلس حرب عاجل ، وأعاد القادة الحقــائق المعروفة عن التقدم المغولى . وتمعّن قطز فى الموقف . إنه رجل حازم فخور بنفسه المطمئنة ، وليس هو بالرجل الذي يُخَاطب بإنذارمتعجرف . لكنه كان واقعيا كذلك ، إذ سأل قادته هل يستطيع المماليك أن يتصــدوا للمغول؟ فلم يوافقه أغلب القادة وأوصوا بالخضوع لطلبات المغول .

٤ – قطــز يأخذ بالشورى

وبعد تلك الإطلالة على ما كتبــه المؤرخ الغربى ، ننظر فيما كتبه الهمذانى ، المؤرخ العربى ، فى جامع التواريخ ، كما جاءت دون تغيير :

محاورة السلطان قطز مع أمرائه وأرباب دولته لما وصلته رسالة هولاكو المذكورة

لما وصلت الرسالة السابقة التى أرسلها هولاكــو إلــى الســلطان قطــز صحبة جماعة من الرسل ، جمع السلطان أمراءه وأركان دولتــه واستشارهم فى الأمر فقال :

لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جــرار، ولــم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة علــى مقاومتــه واستولى على جميع البلاد . ثم جاء إلى دمشق ، ولو لــم يبلغــه نعــى أخيــه لألحق مصر بالبلاد الأخرى . ومع هذا فقد ترك فى هذه النواحى كيتوبوقا نويان الذى هو كالأسد الهصور والتنين القوي فى الكمين . وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، ويجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة .

فقال ناصر الدين قمري :

إن هولاكوخان ، فضلا عن أنه حفيد جنكيز خان وابــن تولــوى وأخو منككوقاآن ، فإن شهرته وهيبتــه فى غنى عن الشرح والبيــان . وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن، وقد اختص بالتأييد السماوى . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب ولا عار . ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمــران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليــه ، فهــو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لا يفى بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجــأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل .

فقال قطز:

والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكــر وربيعــة والشــام ممتلئــة بالمناحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل . فخليت الأزواج والأبقــار والبذور فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خرابا

تاما كغيرها من البلاد . وينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التـــى تريـــد بلادنا واحدا من ثلاثة ؛ الصلح أو القتال أو الجلاء عن الـــوطن . أمـــا الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك أنه لا يمكن أن نجد لنـــا مفـــرا إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب ناصر الدين قمرى :

وليس هناك مصلحة أيضا إذ أنه لا يوثق بعهودهم .

فقال بقية الأمراء :

ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمربما يقتضيه رأيك:

عندئذ قال قطـــز:

إن الرأي عندى هو أن نتوجه جميعا إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهـــو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .

فاتفق الأمراء بعد ذلك . ثم اختلى قطز بالبندقدار الذى كان أميرا للأمراء وشاوره فى الأمر: إننى أرى أن نقتل الرسل ونقصد كيربوغا متضامنين فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتـــا الحالتين معذوريـــــن.

فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ ، ٣١١ – ٣١٣)

وفى حزم أصدر أوامره إلى حراسه ، فاعتقلوا السفراء من فورهم . وقد أمر قطـز بقطع أجساد السفراء عند الوسط ، ثم قطع رؤوسهم وتعليقهـا على باب زويلة الكبير . وبات واضحا الآن أن المماليك قد التزموا بالدخول فى حرب مع المغول لا رجعة فيها .

ولم يغب عن ذهن قطـز ما سيترتب على رده ذاك من نتائج لا تخرج عن حـرب شرسـة طاحنة ضده وضد أبناء أمته ، ومن ثم بات لزاما عليه الإستعداد لها . ولذا شـرع فى إعداد مواطنيه وتسليحهم بسلاح الإيمان والوحدة قبل تسليحهم بالسيوف والرماح . ولكى يحقق الوحدة أرسل إلى أمراء المماليك المبعثرين ، مثل بيبرس البندقدارى ، الذى عرف بعد ذلك بأنه "الظاهر بيبرس"، طالبا منهم نبذ خلافاتهم الهامشية ، وأن يكونوا يدا واحدة لمواجهة عدوهم الرئيسى وعدو الإسلام لإلحاق الهزيمة به .

وفى ذات الوقت ، لم يغب عن قطـز دور العلماء الهام فى التأثير على الجمـاهير ، فناشدهم المساعدة والنـّصرة ، عاقدا الأمل على دعائهم بالنصر، وتحريض النـاس علـى الذود عن دينهم . وقد قرّب العلماء واتخذهم مستشاريه ونصحاءه .

وكان أبرز العلماء الذين شاركوا فى هذه التعبئة ، سلطان العلماء العز عزالدين عبـد العزيز بن عبد السلام . وقد سأله قطز أن يصدر فتوى لفرض المزيد من الضـرائب علـى العامة لتجهيز جيش المسلمين .

فأجاب الإمام العزبن عبد السلام قائلا:

"عندما لا يتبقى شئ فى بيت المال ، وبعدما تنفق أنت كل ما تملك من ذهب وأحجـار كريمة ، وعندما تصبح ملابسك التى ترتديها هى نفس الملابس التى يرتديها عامة النـاس ،

فيما عدا لباس الحرب ، وعندما لا يصبح لدى أمرائك وخاصتك وقادة جندك سوى عدة الحرب والحصان الذي يعلوه الجندى للقتال ، عندئذ يكون لك الحق فى أن تفرض على عامة الناس ضرائب زائدة ، وتأخذ ما عندهم من بضائع لتحارب الأعداء" .

وهكذا أوضح عالِم الإسلام المخلص أن أي حاكم لا يقدر على فرض ضرائب إضافية إلا بعد إنفاق ما يملكه من ملكية خاصة وما يملكه المحيطون به من القادة والأمراء ومن حولهم . وذلك ما حدث ، إذ جمع قطز الأمراء والمحيطين به من الأثرياء ، ووضع أمامهم كل ما يملكه من أموال ومجوهرات وتحف وأشياء ثمينه معلنا أنه يتنازل عنها لإعداد جيش المسلمين لمحاربة المغول ، وعلى الأمراء ووالحاضرين أن يحذو حذوه ففعلوا كلهم لم يبق منهم أحد .

وهكذا حصل قطز على ما يلزمه من مال دون أن يفرض ضرائب إضافية على الناس ، الذين شاهدوا بأنفسهم التزام قادتهم وخضوعهم لشريعة الله متمثلة فيما أفتى به عالم الإسلام المخلص ، فهبّوا من يقظتهم وتحققوا من شرعية حكامهم ، وسارعوا إلى أداء واجب الجهاد وبذل أموالهم وأرواحهم لنصرة ما أمرهم به ربهم وصد الغزاة عن احتلال أرضهم .



٥ – موت الخان الأكبر مونغكا

وصل إلى علم هولاكو نبأ موت الخان الأعظم مونغكا . وقد مات الخان الأعظم يـوم ١١ أغسطس ١٢٥٩م أثناء الحملة التى قام بها مع أخيه قوبلاي فى الصين . وكانت التقاليد المغولية تقضى باستدعاء كافة أمراء القبيلة الذهبية ، بمن فيهم هولاكـو ، للحضـور الـى منغوليا لحضور المؤتمر (كورتلاي) لإنتخاب خليفته . ولسخرية القدر ، تسبب موت الخـان الأسبق فى سحب الجيوش من أقاصى الغرب بعد هزيمة البولنديين .

ولأن أولاد الخان المتوفى مونغكا كانوا صغارا وقت وفاته ، فقد مارس الجـيش فـى الصين ضغوطا لإستخلاف قوبلاي ، لكن الأخ الأصغر للخان المتوفى ، أريكبوغا ، اشتهى عرش الخانية لنفسه ، خاصة وأنه كان يسيطر تماما على الوطن بعاصمته قراقوم والخزائن العامة لكنوز الإمبراطورية . وعقد الأخوان قوبلاي وأريكبوغا مؤتمرين (كورتلاي) ، وفى ربيع عام ١٢٦٠م انتخب كل مؤتمر أحد الأخوين خانا أعظم . وكان هولاكو يؤيد قـوبلاي. ولم تحسم المسألة إلا فى عام ١٢٦١م عندما هزم قوبلاي أريكبوغا فى نهاية الأمر، بينمـا ظل هولاكو ماكثا فى حذر على حدوده الشرقية ، متهيأ لدخول منغوليا إذا دعت الضرورة ؛ إذ كانت علاقة هولاكو مع أبناء عمومته فى القبيلة الذهبية تتدهور شيئا فشيئا . وفى الوقت الذى كان بلاطه يظهر تعاطفا شديدا مع المسيحية ، كان الخان بيرك منحازا إلـى الجانـب الإسلامى ، ومعترضا على السياسة التى يتبعها هولاكو المعادية للإسلام .

وفى خضم هذه المشاكل سحب هولاكو جيشه الرئيسى من سوريا بعد استيلائه مباشرة على دمشق ، تاركا كيربوغا يحكم سوريا بقيادة آخذة فى التقلص الشـديد ، تاركـا معـه حوالى ١٥ إلى ٢٠٫٠٠٠ جندى . وكانت الأوامر قد صدرت إلى كيربوغا بغزو مصـر . [1]

ولسوء حظ المغول كانت القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التى لم تهزم ، ألا وهى مصر المملوكية التى يقودها قطز ، تتأهب وتعد العدة لحرب الغزاة .

وفيما يلى رواية أخرى يقول فيها الأسقف دي مسنيل Du Masnil ، نائب مدير البعثات التبشيرية في روما ، في كتابه عن "الكنيسة والحملات الصليبية" :

اشتهر هولاكو بميله إلى النصارى النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عددًا كبيرًا منهم ، من بينهم قائدهم الأكبر" كيربوغا "وهو تركي الجنس نصراني نسطوري ، كما كانت الأميرة دوكس خاتون زوجة هولاكو نصرانية أيضًا . ولقد لعب نفوذ هذه الأميرة على زوجها دورًا خطيرًا ، تفخر به الكنيسة في تجنيب أوربا النصرانية أهوال الغزو التتري ، وتوجيه غزوهم إلى العرب المسلمين في الشرق العربي ، حيث ذبحت قوات التتار العرب المسلمين في مذابح بغداد ، في الوقت الذي أبقت فيه على النصارى في تلك المدينة ، فلم تمسهم في أرواحهم أو أموالهم بأذى ، كما لعبت الأميرة دورًا في إغراء زوجها باحتلال سورية الإسلامية .

ويصف الأسقف حملة التتار فيقول:

"لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها ، حملة نصرانية نسطورية ، وقد هلل لها الغرب وارتقب الخلاص على يد" هولاكو " وقائده النصراني " كتبغا " الذي تعلق أمل الغرب في جيشهما ، ليحقق له القضاء على المسلمين ، وهو

الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية ، ولم يعد للغرب أمـــل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم العرب والمسلمين .

وقد بادر" هاتون الأول- "ملك إرمينية و"بوهومونت الســادس ، أمير طرابلس ، وأمراء الإفرنج " صور " و"عكا " و"قبرص " بــادر هؤلاء جميعًا إلى عقد حلف مع التتار، يقوم على أساس القضــاء علــى المسلمين كافة في آسيــا ، وتسليم هؤلاء الأمراء بيت المقدس .

كما يقول" دي مسنيل "في كتابه عن تاريخ التبشير:

"إن النصارى هم الذين حرضو " هولاكو "علــى الرحيــل عــن سورية إلى بلاده ، ومحاربة أخيه هناك ، بسبب موالاته للإسلام ."

وأخيرًا انتهى أمل الصليبيين بدخول التتار في الإسلام ، وفي ذلك يقول الأسقف" دي مسنيل "واصفًا هذه الخاتمة :

وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوتــه علــى الــزوال ، يسترد مكانته ، ويستعيد قوته ، ويصبح أشد خطرًا من ذي قبل .

لقد كانت مهمة قطز صعبة جداً ، لأنه كان عليه أن يواجه الخطر الداخلي المتمثل بالارتباك والفوضى في نظام الحكم والصــراع علــى السلطة ، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يواجه الخطر الخارجي المتمثل بالغزو التتري الداهم المتحالف مع الصليبيين في الغرب والشرق معًا .

٦ - التحالف المغــولى الصليبي

أرسل كيربوغا جزءاً صغيرا من الجيش إلى داخل فلسطين ، وراح المغول يمارسون ما اعتادوا عليه من نهب وقتل وتخريب طوال الطريق من نابلس إلى غزة ، غير أنه بنـــاء على أوامر كيربوغا لم يهاجم العسكر الشريط الضيّــق الذي يحتله الصليبييون على الساحل ، الأمر الذي يؤكد التحالف المغولى الصليبى .-

وبرغم ذلك ، يورد المؤرخ دافيد ي. تشانز في تاريخه أن قائدين صليبيين تصــرفا على نحو معاكس لذلك التحالف ، وقاما بمهاجمة بعض المغول فى فلسطين :

وحدث أن قام قائدان صليبيان هما ، جون أمير بيروت وجوليان أميرصــيدا بغــارات على الأراضى التى احتلها المغول حديثا ، فأرسل كيربوغا حملة تأديبية على صيدا ونهبــوا المدينة وقتلوا سكانها ، وصمدت قلعة البحر وحاميتها . وانطفأت جذوة الحماس المســيحى المعادى للمغول عندما وصلت إلى الصليبيين كلمة بأن هناك جــيش مغــولى آخــر بقيــادة بوروندای *Burundai* غزا بولندا . وفى نفس الوقــت تقريبا عاد مبعوث الملــك الفرنســى لويس التاســع ، وليم أوف روبروك *William of Rubruck* ، من منغوليا ومعــه تقريــر كامل عن الغزاة المغول . وبعد أن قرأه البابا ألكسندر الرابع أرسل كلمته إلى كافــة أرجــاء العالم المسيحى اللاتينى ، مفادها أن المغول وثنيون متوحشون شرسون غير موثوق بهــم . وإن التحالف معهم سيكون جزاؤه الطرد من الكنيســة .

وهكذا سُــوّيت مسألة التحالف مع المغول بالنسبة للمسيحيين اللاتينيين .

وعن القديس لويس التاسـع ملـك فرنسـا مع المغـول ، يقـول المـؤرخ سـتيفن رانسيمان Steven Runciman ، فى تاريخـه الموسوعى الممتـع المعنـون تـاريخ الحمـلات الصليبيـة A history of the Crusades بشأن التحالف المغولى المسيحى:

"تسلطت على الملك لويس التاسع هواجس منعته من التفاوض أو الإتفاق مع هؤلاء المسلمين الكَفَـرة ، لكن تلك الهواجس لم تكن لتنطبق على المغول الوثنيين ، إذ وصـل إلى قبرص اثنان من النساطرة فـى ديسمبر١٢٤٨م ، أرسلهمـا القائد المغولى أليغيداي، حاكم الموصل من قِبَل الخان الأعظـم ، وأبرزا رسالة تسهب فى تعـاطف المغـول مـع الميسحية ، الأمر الذى أدخل البهجة على لويس التاسـع فأرسـل مـن فـوره بعثة من المسيحيين الدومينيكانيين برئاسة أندرو أوف لونيمـو وأخيه وكلاهما يتحدث العربية ، وقد حملت البعثـة معها هدايا تتـألف من نموذج لكنيسـة وبعض الآثار الدينيـة لمذبحهـا وغيـر ذلـك ، وقابلت البعثـة أليغيداي حاكم الموصـل الذى أرسل البعثة إلى منغوليا ، حيث وجدت أن جويوك كبـير المغول قد مات وأرملته أوغول تقـوم بالوصاية . وقابلت الأرملة البعثـة مقابلة كريمة ، غير أنها اعتبـرت الهدايـا مجرد إتاوة من تابع لسيده . وحالت مشاكل الأسـرة المغوليـة دون إرسال حملة كبيرة الى الغرب ، وعـاد أندرو بعد ثلاث سـنوات بمجرد خطاب شكر من الأرملة باعتبارها السيد الأعلى لما أبداه تابعهـا من حرص على خطب ود المغول ، وطلبت إرسال هدايا مماثلـة كـل

عام . وذهل لويس التاسع من هذا الرد ، إلا أنه لم يفقــد الأمــل فـــى
التوصل الى تحالف مع المغــول يوما مـــا ."

وكان السلطان قطــز مدركا لهذا التحالف بين المغول والصليبيين ، غير أنه لم يكــن يعبأ بالصليبيين فى هذ المفترق الصعب ، إذ كان على ثقة من أن الصليبيين فى حالة ضعف شديد تحول بينهم وبين مهاجمة المسلمين ، فضتلا عن أنهم بتحالفهم هذا الذى بدت بـــوادره ، قد تركوا للمغول الذين يسالموهم مهمـــة التصدى لقوة المماليك فى مصر ، ولا شك فـــى أن النصر سيكون حليفا للمغول كشأنهم فى كافة المعارك التى خاضوها . هكــذ فكّــر قطــز ، وهكذا قرر دخول المعركة مع المغــول .





الفصل السادس

مَعْرَكَة عيْن جَالُـــوت

من معارك المصير الإنسانى

♣♣♣♣♣



١ - فى الطريق الى الحرب

مربنا أن السلطان قطز أخذ بالشورى ولم ينفرد برأيه وحده ، عملا بالآية الكريمة :

" وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ" (آل عمران) (٣: ١٥٩)

ذلك أنه جمع الأمراء والعلماء للتباحث والتشاور بينما انتظر مبعوثو هولاكو يبتسمون وفى رأس كل منهم أن آخر قوة إسلامية سوف ترضخ لهولاكو ملك الملوك شرقا وغربا .

كما أن قطز ، بعد تطبيق الشورى التى أمر بها الإسلام ، شرع فى إعداد العدة ، وأخذ بفتوى الإمام العز بن عبد السلام فى توفير الأموال اللازمة فتبرع بماله كله ، وحذا الأمراء والأثرياء حذوه ، ومن ثم توفرت الأموال اللازمة لجيش قوى ولحرب ضروس ، وفى ذلك عمل بالآية الكريمة :

"وَأَعِدّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدوّ الله وَعَدُوّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُم الله يَعْلَمُهُمْ " (الأنفال)(٨ : ٦٠)

وبعد إعداد جيش قوي مجهز بكل ما يلزم من سلاح وعتاد ، لم يشأ قطز أن ينتظر مجئ المغول إلى مصر ، وإنما استرشد بالآية الكريمة :

"وَإِمّا تَخَافنّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَة فَانْبِذْ إِلَيْهِم عَلَى سَوَاءٍ إِنّ الله لا يُحِبّ الخَائِنِين"

(الأنفال) (٨: ٥٨)

وكان يتلمس طريقه من خلال الآيات ، طريق النصر الذى لا يكون إلا من عند الله :

"قَاتِلوهُمْ يُعَذِّبْهُـم الله بِأيْدِيكُم ويُخْزِهِم ويَنـْصُرْكـُمْ عليهِمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُؤْمِنين" (التوبة) (٩: ١٤)

"وَقَاتِلُوا فِي سَبيلِ الله الّذين يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعتَدُوا إنّ الله لا يُحِبّ المُعْتَدين . وَاقْتُـلُوهُم حَيْثُ ثَقِفتمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِن حَيثُ أَخْرَجُوكُم والفِتْنَةُ أَشَدّ مِنَ القَتْلِ ..."

(البقرة) (٢: ١٩٠-١٩١)

بات مطمئن ا لنفس ، هادئ البال ، واثقـا من نصر الله ، وما عليه إلا أن يتوكل على الله وينطلق إلى أعداء الله .

٢ - الخـروج من مصر

خرج قطز يوم الإثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م بجيش مصر ومن انضم إليه من عسكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل في القـاهرة ، واتجـه إلى الصالحية ، حيث كان فيها معسكر مصر الكبير الواقع في شرق الدلتا .

وكان قطز قد أحضررسل "هولاكو" وأعدمهم ، وبذا أيقن الجنود والناس جميعا أن لا مفر من القتال ، ونودي في القاهرة والفُسطاط وغيرهما من أقاليم مصـر بـالخروج إلـى الجهاد، ووكان قطـز وهو على رأس الجيش الكبير السائر إلى الصالحية ، يجمع ولاة المدن والقري ويحثهم على دعوة القادرين وتعبئتهم للخروج إلى القتال . ووصـل إلـى معسـكر الصالحية حيث توافدت عليه الحشود ، فجمع الأمراء وكلمهم بالسير إلى خارج مصر لملاقاة المغول . فوافقه البعض ، وعارضه آخرون من الذين ارتأوا البقاء فى مصر للدفاع عنهـا .

وتحدث أمراء الجيش يعرضون ما يرونه ، فقال معارضوا الخروج ممن يفضّلون البقاء فى مصر للدفاع عنها وعن أهليهم وذويهم إنهم بذلك يفضلون قرب المسافة من المدد ومن الوطن ، أما إذا كان القتال خارج مصر ، وحدث ما لا تحمد عقباه ، فستكون الشقة بعيدة والمسافات طويلة . وأما المؤيدون للخروج لملاقاة المغول خارج مصر ، فكانوا يرون أن من شأن ذلك أن يجنّب مصر ويلات الحرب . فلا خوف على أهليهم وذويهم ، كما أن الخروج يرفع معنويات الرجال ومعنويات المصريين جميعا ، ويوحي للمغول بأن الجيش المصري لا يخافهم فيؤثر ذلك فى معنوياتهم . وكانوا يظنون أن المدافع لا ينتصر مطلقًا إلا في نطاق ضيق محدود بعكس المهاجم الذي يؤدي انتصاره إلى إلحاق كارثة بعدوه . وكان قطز يرى نقل المعركة خارج مصر لأسباب عسكرية خالصة تتصل باختيار أرض المعركة، فضلا عن الأسباب الأخرى التى أبداها مؤيدو الخروج ؛ فالمغول منذ أن أغاروا على بلاد المسلمين سنة ١٢١٩م لا يلقاهم جيش إلا غلبوه ، وكانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويسوقون الأسرى وينهبون الأموال .

وانتهى الأمر بتأييد الرأي القائل بالخروج ، فلم يسع البقية المعارضة للخروج إلا أن ترضخ لما ارتآه الجمع .

وجمع قطز قادة العسكر وشرح لهم خطورة ما هم مقدمون عليه من القتال ، وذكّرهم بما وقع من المغول في البلاد التي استولوا عليها من شناعة القتل والتخريب ، وما ينتظر مصر وأهلها من مصير مروع إذا انتصرالمغول ، وحثهم على بذل أرواحهم في سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين من هذا الخطر الداهم ، فوعدوا ألا يدخروا وسعًا في القتال وإنقاذ مصر والإسلام من شرهؤلاء الجلادين المغول .

وهكذا عقد القادة العسكريون بعد إكمال حشد قواتهم العزم على الدفاع عن مصـــر ، أمام تلك الجحافل التى استولت على أغلب بلاد المسلمين ، فالمغول لم يقصـــدوا إقليمًـــا إلا فتحوه ، ولا عسكرًا إلا هزموه ، فاستولوا على ثلاثة أرباع العالم الإسلامى ولم يبق خـــارج حكمهم إلا مصر، وقد هرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى المغرب . لقد كانت المعنويات منهارة ، فلا عجب أن يبذل قطز كل جهده لرفع معنويات قادتـــه ورجالـــه ، وأن يستحث القادرين على حمل السلاح للجهـــاد بأرواحهـــم ، والقادرين على تقـــديم الأمـــوال للجهاد بأموالهم ، وأن يحشد كل طاقاته المادية والمعنوية للحرب ولا يُـــقبل عذر من أحـــد قادر على الجهاد بالمال والنفس بعد أن ضرب قطز مثلاً شخصيًا رائعًا في الجهاد بمالـــه ، وها هو فى سبيله للجهاد بنفســـه وروحه في سبيل الله .

وكان السلطان قطـــز ، بعد أن خلع عليّ نورالدين بن أيبك ، قد أرسل إلى الأمـــراء الهاربين من مصر كي يحضروا ويسهموا فى محاربة المغـــول ، فجـــاء الأميـــر بيبـــرس البندقداري هو وبعض أمراء المماليك ، وكانوا قد هربوا من مصر إلى دمشق لإستيائهم من أيبك . ووضع نفسه تحت تصرف السلطان قطز، فأنزله السلطان بدار الوزارة ، ورحب بـــه وأحسن معاملته ، وأقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها .



٣ - التوغــل داخل فلســـطين

علمنا أن هولاكو أرسل سفارة إلى قطز يطلب الخضوع ، وأن قطــز قتــل الســفراء وتأهب لقتال المغول ، وأنه خرج من القاهرة إلى الصالحية . وقد حدث أن هولاكــو علــم بموت الخان الأكبر مونغكا ، وأن الحرب الأهلية بدأت فى منغوليا أو كادت ، فسحب جزءا من جيشه باتجاه الشرق، وكانت القوات التى تركها فى سوريا لقائده كيربوغا أقل كثيرا من الجيش الذي جمعه قطــز الآن ؛ فبالإضافة إلى المصريين كانت هناك بقايــا الخــوارزميين وجنود أمير الكرك الأيوبى .

وفى ٢٦ يوليو عبر الجيش المصرى الحدود وسار إلى غزة ، وبيبرس يقود طليعــة الجيش ، وكانت هناك قوة مغولية صغيرة فى غزة بقيادة القائد بيــدار الــذى أرســل إلــى كيربوغا يحذره من الغزو المصرى .

وجمع كيربوغا جيشه وهو فى قاعدته فى بعلبك بلبنان وبدأ المسير باتجــاه الجنــوب منطلقا على الجانب الشرقى لبحيرة طبرية إلى وادى الأردن ، لكن حدثت انتفاضة قام بهــا مسلمو دمشق أجبرته على التوقف ؛ إذ قام المسلمون بتدمير بيوت المسيحيين وكنائســهم ، فكان من الضرورى إرسال بعض فرق المغول إلى دمشق لإستعادة النظام .

وفى الوقت نفسه قاد قطــز جيشه وشمالا على الساحل الفلسطينى ، واختــار التقــدم داخل البلد شمالا لتهديد خطوط مواصلات كيربوغا إذا قرر هذا الأخير التقدم داخل فلسطين .

٤- سفارة مصرية إلى الصليبيين فى عكـــا

وأرسل قطز سفارة مصرية إلى عكا طالبا الإذن بالمرور خلال الأراضـــى الفرنجيـــة والحصول على المؤن أثناء السير عند تعذر الحصول على العـــون العســـكرى الضـــرورى للقتال. وكان الصليبيون فى حالة من الضعف الشديد وليس بمقدورهم بذل أية مقاومة لصد المغول .

واجتمع البارونات فى عكا لمناقشة هذا الطلب ، وكانوا ما يزالون يشعرون بـــالمرارة حيال المغول الذين خربوا صيدا ونهبوها مؤخرا كما تقـــدم ، كما أنهم كانت تراودهم الريب والشكوك تجاه تلك القوة الشرقية الوافدة عليهم بما لها من شهرة لاتخفى فى ارتكاب المذابح بالجملة ، بخلاف الحضارة الإسلامية التى ألفوها . وكان أغلب البارونات يرى أن المسلمين أفضل من المسيحيين المحليين الأرثوذوكس الذين يحابيـــهم المغول .

وفى أول الأمر كان البارونات يميلون إلى تزويد السلطان قطز ببعض القوات المقاتلة الإحتياطية . غير أن السيد الأعظم لنظام فرسان التيوتون الـــدينى العســـكرى ، أنـــو فـــون سانجرهاوزن *Anno von Sangerhausen* ، حذرهم من التمادى فى الثقـــة بالمســـلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم وانتصروا على المغول . وكان للنظام التيوتونى الذى يرأســـه ممتلكات كثيرة فى المملكة الأرمينية ، وربما كان السيد الأعظم يؤيد سياسة الملك هيثوم ملك أرمينيا . وكان لكلماته وفصاحته أثرهما على بارونات الصليبيين ، فتقرر رفـــض التحـــالف العسكرى مع السلطان قطز ، وقرروا الإلتزام بمرور آمن للسلطان وجيشـــه فى أراضـــيهم وإمداده بالتسهيلات والمؤن .

وخلال شهر أغسطس عام ١٢٦٠م ، قاد السلطان قطــز جيشــه بطــول الطريــق الساحلى وعسكر لعدة أيام فى بساتين الفاكهة الواقعة خارج عكـا . وأرسل بارونات عكـا دعوة لعدد من أمراء جيش السلطان لزيارة المدينة كضيوف شرف ، فأذن لهم قطــز بتلبيــة الدعوة ، وكان من بينهم ركن الدين بيبرس . وبعد عودتهم من تلك الزيارة حادث بيبــرس السلطان قطز ولفت نظره إلى سهولة الإستيلاءِ على المدينــة بمهاجمتها بغتــة ؛ ورفــض قطــز رفضا قاطعا أن يقدم على مثل تلك الخيانة بما فيها من احتمال انتقام مسيحى قبل أن يتغلب على المغول ، وبذا يخاطر مخاطرة بالغــة بجيش المسلمين . أما فرنج عكـا فكانوا يمنون النفس فى أن يفى السلطان قطز بوعده إذا انتصر على المغول بالسماح لهــم بشــراء حاجتهم من خيول المغول بأسعار مخفّــضة .

٥ – بداية المعركــة

وفى ٣ سبتمبر ، تحول كيربوغا غربا عبر الأردن ثم صعد إلــى ســهل إزدراليــون المرتفع . واتخذ قطز مواقعــه فى عين جالوت (حيث تقول التقاليد المحليــة إن داود قتــل جالوت) . وفى تلك البقعة كان السهل الفسيح يضيق شيئا فشيئا بحيث يبلغ عرضه أقل مــن خمسة كيلومترات ، ويقع إلى جنوبه جبل جيلبو *Gilboa* وهو جبل شديد الإنحدار ، وتحميه من الشمال تلال جالوت . ووضع قطــز وحدات من فرسان المماليك فى التلال المحيطــة ، بينما أمر بيبرس والطليعة بالتقدم .

وأقبل المماليك على المعركة الوشيكة بمشاعر اليأس ، فليس هناك مــن بــديل عــن النصر، إذ كانت تراودهم هواجس الإنتصارات المغولية السابقة ، ولو يحصل المغول علــى انتصار جديد يضيفونه إلى انتصاراتهم ، فحتما سينتهى الإسلام كقوة سياسية .

وربما كان مرجع مشاعر اليأس تلك ما كان معروفا من سياسة جنكيز خان الوحشية الخالية من الرحمة ، لكنها من الناحية الأخرى كانت ترفع من عزيمـــة المماليــك وتقــوي تصميمهم على ألا يكون هناك بديل عن النصر ؛ ولذا قام قطـــز وألقى خطبة انهمرت لهـــا دموع رجاله ، إذ ذكـّـرهم بطبيعة التتار الوحشية . ولا بديل عن القتال ، إلا موت مفــزع يصيبهم وأزواجهم وأولادهم . لقد خلقت كلماته فى أرواح المماليك بأس الفولاذ الشديد فـــى قوته وصلابتة ، فهيـّـأهم للمعركة الوشيكة ضد عدو لم يذق طعم الهزيمة .

تقدم بيبرس بطليعة الجيش وعلى رأسهـــا بيبرس ، الذى اشتبك مع قـــوات كيربوغـــا وكانت تتجه نحو عين جالوت . وعندما شاهد كيربوغا قوات بيبرس ظـــن أنهـــا الجـــيش المملوكى كله ، فقاد رجاله فى هجوم عام , والتحم الجيشان وبدا أن كلا منهما سيقضى على غريمه ، ولكن بيبرس أمر بالتقهقر ، وتبعـــه المغول ظانين أنهم قد انتصـــروا .

وعندما وصل بيبرس بقواته إلى عيون جالوت أمر بالتوقف والإستدارة لمواجهة العدو والهجوم عليه ، وهنا فقط تحقق المغول من وقوعهم فى فخ من أفضل تكتيكاتهم هم أنفسهم ، ألا وهو التقهقر المخادع . وفى الوقت الذي عاود فيه بيبرس الإشتباك مـــع المغـــول هجـــم قطزعلى جناحى المغول باحتياطى فرسانه المختبئين فى التلال والمنحدرات .١

٦ – وا إســــلاماه !

والأن ، وقد تحقق كيربوغا من أن المعركة تدور رحاها مع الجيش المملوكى كلــه ، أمر بالهجوم على ميسرة المسلمين ؛ وصمد المماليك ، ثم مالوا ، ثم صمدوا مرة أخــرى ، لكنهم فى نهاية المطاف استداروا تحت هجمات المغول الشديدة .

وبينما كان جناح المماليك يتشقق منذرا بالإنهيار ، وبدا أن الجيش كله مهدد بالهلاك ، انطلق قطز إلى حيث بلغ القتال أشرس أحواله واعتلى صخرة ، وألقى بخوذته الحديدية على الأرض بحيث يراه الجيش كله ، وصرخ مرددا بصوت جهورى "وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه !" . فكان لوقفتــه عارى الرأس ، ولكلماته الثلاث المتقدات ، وهيئتــه ثم اندفاعه إلى قلب صفوف المغــول ، وقع ا لسحر ، وبعثت فى جنوده المهتزين روحا جديدة وتلاشى وسواس اليأس ، واختفت أشباح الإنهيار ، وراح يصرخ فى الجنود كي يثبتــوا ويقاتلوا عدو الله ، والتفت إليه قادة الفرق الذين نال منهم الإعياء والإحباط ، فرأوا ســلطانهم بوجهـــه المتــقد وقد ألقى بنفســه فى ساحة القتال يضرب بسيفه ويخترق صفوف التتار وقد خلــف وراءه بضع عشرات من جثث الأعــداء. فذهلوا لشجاعتة ، وعلى الفور حذوا حــذوه ممــا رفع من معنويات جيش المسلمين .

وعاود المسلمون بطشهم بعدوهم ، وصمد جناح الميسرة . ولمــــا قويــت صــفوف الميسرة ، قاد قطـــز هجوما مضادا اكتسح فيه القوة المهاجمة .

♣♣♣♣♣

٧ – انتصـــار الإســـلام

ولم يمض وقت طويل قبل أن تميل الحرب إلى جانب المسلمين ، وسرعان ما تبعثـر الجيش المغولى ، وقد قتل الكثير من جنوده أو أسروا أو ولوا الأدبار بعد ما قتل قائدهم وأسر ابنه . ولم يسلم أحد من المغول من القتل أو الأسر، فمن نكص على عقبيه وهرب قتله أهـل الشام .

وعندما وصلت تلك الأنباء المجيدة مدينة دمشق ومـا حولهـا ، ابـتهج المسـلمون واستعادوا شرفهم الجريح وجناحهم المهيض ، وراحوا يهاجمون المغول . كما هاجموا مـن كان ظهيرا لهم من الحشاشين المغلوبين على أمرهم .

رسالة الملك المظفر قطـز إلى صاحب اليمن

الملك المنصور يبشره بانتصاره العظيم على المغول

من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالى المولـوي السـلطانى الملكى المنصوري وأعلى مناره وضاعف اقتداره . نعلمه أنه لما كـان النصف من شهر رجب الفرد فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين .

من كل مَنْ لولا تسـعُـرُ بأسه ... لاخضر جودا فى يديه الأسمـر

فصدرت هذه التهنئة إليه رواية للصدق عن اليوم المحجل الأغـر:

يوم غدا بالنقـع فيه يهتـدي ... من ضل فيه بأنجـم المـران

ففى أذن الدهر من وقعه صمم ، وفى عرنين البدر من نقمه شَـمَم . ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويسنده بحر العوالى عن بحر الأعنـة أما النصر الذي شهد الضربُ بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر ـ خذلهم الله تعالى ـ استطالوا على الأيام ، وخاضـوا بـلاد الشـام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام .

سعى الطمعُ المردى بهم بحتوفهم ... ومن يُمْـسِكَنْ ذيل المطامع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بـالعرض ، وقـد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطـامهم ، وعـاد كيـدهم فـى نحورهم، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لـم ينـالوا خيـرا . وكفـى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزاً.

راموا الأمور فمذ لاحت عواقبها ... بضد ما أملوا فى الورد والصدر

ظلوا حياري وكأس الموت دائرة ... عليهم شرعا فى الورد والصدر

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم ... بالسمهرية مثل الوخز بالإبـر

لا جرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .

تدرعوا بدروع البغي سابغـة ... والمرء يحصد من دنياه ما زرعا

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم فـى بحـار الآمال ، فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة ، وأقلعوا فى البحـر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، وساروا وللشيطان فيهم وسـاوس ، تغـرهم أمنية الظنون الحواس ، فما وسوس الشيطان كفرا إلا وأحرقه الإيمـان بكوكب ... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، جاذبة عقبانها فى وكور ظباها ، رابضة آسادها فى غيل إقناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعـة لهـا ناسخة ، ولا عُقِدَت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان . ولا نطق كاتب إلا

وأخرسه القرآن . ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات .

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادى فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الطرفين ، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلواً ، حتى صارت المفاوز دلاساً ، ومراتع الظِبا للظُبا عراصا ، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصا . ورأي المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا . فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نقع ، ولا وبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ، ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل حتى صار كافور الدين شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً ، وضرب النقع فى السماء طريقاً ، وازدحمت الجنائب فى الفضاء فجعلته مضيقاً . وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد .

(صبح الأعشى للقلقشندى ج ٧ ، ٣٦٠-٣٦٢)



٨ – حكاية كيربوقا المغولى

ومما يرويه المؤرخون أن كيربوقا عندما أيقن أنه يواجه موقفا يتداعى ، وعندما اقترح أحد أعوانه الإنسحاب ، أجاب باقتضاب :

"علينا أن نموت هنا ، هذه هى النهاية . ويعيش الخان ويسعد ."

ويروى المؤرخون كذلك أنه برغم الضغط المملوكى الشديد واصل كيربوغا دفع رجاله . ثم أصيب حصانه بسهم ووقع على الأرض . وأسرته جماعة من المماليك كانت على مقربة منه وساقته إلى السلطان وسط صليل السيوف .

ويسترسل المؤرخون سردهم لتفاصيل غاية فى الدقة أن قطز نظر إليه بوجهه الذى غطته حبات العرق وقال له :

"ها أنت قد وقعت أخيرا بعد أن أسقطت الكثير من الملوك والأسر الحاكمة ."

وكان كيربوغا ما يزال فى حالة من التحدى ، فرد قائلا :

"إن قتلتنى ، وسمع الخان هولاكو بموتى ، سوف ترتجف الأرض من أذربيجان إلى مصر تحت حوافر خيول المغول ."

وأراد كيربوغا أن يلحق الإهانة بعدوه فأضاف:

"طوال حياتى وأنا خادم للخان ، ولست مثلك أقتل أسيادى" .

فأمر قطز بقتل كيربوغا وإرسال رأسه إلى القاهرة كإثبات للنصر الإسلامى .

وفى رواية أخرى :

"ظل كيربوغا يهاجم يمينا وشمالا بكل ما أوتى من حماس، وشجعـه الـبعض علـى الهرب ، لكنه رفض قائلا : "لا مهرب من الموت ، والأفضل أن أموت شريفا عن أن أهرب خزيا . وفى نهاية المطاف فإن واحدا من هذا الجيش ، صغيرا كان أو كبيرا ، سوف يصل إلى بلاط الخان ويبلغه أن كيربوغا الذى لم يشأ ان يعود مخزيا ، قد بذل حياته فى المعركة . ولن يحزن الخان على موتَى عسكر المغول . وسيتخيل أن زوجات عساكره لم يحبلوا طوال عام وأن جياد قطعانه لـم تهلك . إن مصدر سعادتى هو الخان ، ليسعد ويهنأ ، وكل خسارة يمكن تعويضها . إن حياة أو موت الخدم من أمثالنا لا يهم ." ورغم أن الجنود تركوه ظـل يحارب فى المعركة كألف رجل ، وفى النهاية سقط جواده ووقع كيربوغا فى الأسـر .

واقتيد كيربوغا مكبلا بالأصفاد الى قطز الذي قال له : "أيها القميئ ، لقد سفكت دمـاء كثيرة ظلما ، واجهزت على أبطال ونبلاء بتأكيدات زائفـة ، وقضيت على عروش بوعـود هشّة ، والآن وقعت أنت نفسك أخيرا فى الفخ ."

وعندما سمع ذلك المقيد فى الأصفاد تلك الكلمات ، زمجر كفيل هائج ورد قائلا:

"أيها المغرور، لا تغتر بنصرك اليوم . فإن قتلتنى ، فإننى اعتبر أن تلك إرادة الله ، وليس إرادتك . ولا تغتر بهذه الحادثة ولو للحظـة ، فعندما تصل أخبار موتى إلى الخان هولاكو ، ستضطرم بحار غضبه ، وستهتز الأرض من أزربيجان وحتى بوابات مصر تحت حوافر خيـول المغول . وسوف يأخذون رمال مصر فى كياس ألجمـة خيولهم ، فلدى

الخان هولاكو ثلاثمائة ألف خيّـال مثل كيربوغا , وتستطيع أن تقضـــى على واحد منها . "

فاقل له قطز:

"لا تتحدث بمثل هذا الفخر عن خيّالة الخان ، فـإن لــه حـيلهم وخداعهم ، وهم خلو من الرجولة التي كان يتصف بها رستم ."

فرد كيربوغا قائلا : " لقد عشت طوال عمرى خادما لسيدى ، لا كمتمـرد ، ومغتـال لسيده من أمثالك . لتقضى عليّ بأسرع ما يمكن . " فأمر قطز بفصل رأسه عن جسده " .

وفى رواية أخرى أن كيربوقا أرسل رسالة شفهية لهولاكو أثبتها الهمذانى كالآتى :

<u>رسالة كيربوقا الشفهية والأخيرة لهولاكو</u>

<u>لما هزم جيشه فى عين جالوت وقبل أن يُـقتل</u>

لا مفر من الموت هنا . فالموت مع العزة والشـرف خيـر مـن الهرب مع الذل والهوان . وسيصل رجل واحد ، صغيرا أو كبيرا ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامـى قـائلا : إن كيربوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغاليـة فـى سبيل واجبه ، وينبغى ألا يشق على الخاطر المبارك نبـأ فنـاء جـيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاما واحـدا ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم إقبال الملك . وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة فإنها تكون عوضا لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ – ٣١٤)

وننظر إلى كل تلك الروايات ببالغ الريبة ، بل والإنكار . فكيف حصل الهمذانى على رسالة شفهية حملها مجهول ، بلغة مغولية بطبيعة الحال ، هذا إن كانت هناك رسالة أصلا ؟

وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى ، لا شك أن تلك الروايات إنما هى محض اختلاق وتصور خيال ، حتى وإن رددها المؤرخون الواحد تلو الآخر ، سواء مؤرخو العرب او الغرب . فلم يكن كيربوغا يعرف من اللغات سوى المغولية ، وليس فى الإمكان وجـود مترجم فى خضم معركة حمى وطيسها ، يدون فى قرطاس ، أو يحفظ فى صدره ما يقولـه كيربوغا عن موته السعيد، وحتى لو افترضنا وجود المترجم ، فلم يكـن بجـوار كيربوغـا مؤرخ يدون الكلمات فى قرطاس ، وفى أتون معركة صاخبة تتعالى فيها صرخات الجرحى وصلصلة السيوف وصيحات المهاجمين وصهيل الخيول . فلا بد إذن أن واحدا من المؤرخين تلبّـسه الخيال فى لحظة حماس ، وراح يصيغ ذلك الحوار المصطبغ بالوطنيـة المغوليـة المثالية ، وبذل الذات من أجل أن يعيش الخان ويسعد ، لا ندرى من الـذي رواه ، وأغلـب الظن أن الذي اخترعـه أحد المؤرخين الغربيين من الحاقدين على الإسلام . وكذلك الحـال فيما يخص الحوار الذي دار بين قطز وكيربوغا ، ذلك أن كيربوغا لا يعرف العربيـة ، ولا قطز يعرف المغولية ، فلا بد إذن من وجود مترجم بينهما فى تلك اللحظة الصاخبة والمعركة على أشدها . من الذى كان يقوم بالترجمة بين قطز وكيربوغا ومن الذي كان يستمع ويدون ما كان يقال ، ثم يرويه بدوره فيسمعه آخرون ، يقصونه بدورهم على غيرهم ، والمعروف أن لكل قصاص ألفاظه ، بل ومبالغاته وتحويراته بما يتفق ومشـاعره الحماسـية أو غيـر الحماسية .

وفضلا عن ذلك ، من المعروف أن قطز لم يقتل أحدا من أسياده ، وخاصة سلفه الشاب على بن أيبك ، وهو (أي أيبك) السلطان المملوك الوحيد الذي قُتل مع زوجته شجرة الدر أثناء أن كان كيربوغا على قيد الحياة ؛ وإنما حدثت بعد عين جالوت صراعات دموية على السلطنة فيما بين المماليك ، وكان كيربوغا قد مات قبل أن يُشاع قتل سلاطين المماليك بعضهم بعضا . وإذن ، فإن هذه الحقيقة فى حد ذاتها تجعلنا نشير بأصابع الإتهام إلى الحاقدين على الإسلام ، بأنهم اخترعوها اختراعا .

ونعود إلى معركة عين جالوت ، فنعلم أنه بذهاب القائد ولى المغول الأدبار هاربين ، انطلقوا لا يلوون على شئ يطاردهم فرسان من المماليك طوال مسافة ١٢ كيلومترا حتى مدينة بيسان . وراحوا يعدون العدة لمواجهة مطارديهم من فرسان المماليك . وكانت نتيجة الإشتباك هزيمة القوة المغولية ، وأما من بقى على قيد الحياة فقد عبر نهر الفرات هاربا بحياته .

٩ – فى أعقاب المعركة

ويستطرد الشيخ قطب الدين قائلا :

> انتصر المسلمون ، وهزموا المغول هزيمة ماحقة ، وقتل قائدهم كيربوغا. ويقال إن الذي قتله هو الأمير جمال الدين آقوش الشمسي ، ورا ح المسلمون يطاردون المغول الهاربين ، يقتلونهم حيث وجدوهم ، وكان فى أثرهم بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان يقتلونهم في

كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، أما المغول الذين كانوا فى دمشق ، فقد هربوا ، وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من رمضان وكان مع جيش قطز المنتصر الملك المنصور صاحب حماه ، وكـذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، وأسر من المغول الفارين الملك السعيد بن العزيز بن العادل ، وأستأمن الأشرف صاحب حمص الـذي كان مع التتار وقد جعله هولاكو خان نائباً على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها .

ويسترسل الشيخ قطب الدين قائلا :

فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ، ويستفكّون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً ، وأيـد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر ديـن الله وهم كارهون .

فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خـرج منهـا الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى ، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وأحرق الـبعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود . فقيل لهم إنه لم يكن مـنهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان ، وقتلت العامة وسـط الجـامع

شيخاً رافضياً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال لـــه : الفخـــر محمد بن يوسف بن محمد الكنجي ، كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبحه الله . وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطـــع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . وقد كان هولاكو أرسل تقليداً بولاية القضاء على جميع المدائن: الشام ، والجزيرة ، والموصل ، وماردين ، والأكراد وغير ذلك ، للقاضي كمال الدين عمر بـــن بـــدار التفليسي .

وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضي صدر الدين أحمـــد بـــن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة من مدة خمس عشـــرة ســـنة ، فحـــين وصل التقليد في سادس عشرين ربيع الأول قرئ بالميـــدان الأخضـــر فاستقل بالحكم في دمشق ، وقد كان فاضلاً . فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى خدمة هولاكـــو خان إلى حلب ، فخضع ابن الزكي لابن سني الدولة وبذل أموالاً جزيلة، وتولى القضاء بدمشق ورجعا .

فمات ابن سني الدولة ببعلبك ، وقدم ابن الزكي على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة فلبسها وجلس في خدمة إيل سنان تحت قبة النســـر عند الباب الكبير، وبينهما الخاتون زوجة إيل سنان حاسرة عن وجهها . وقرئ التقليد هناك والحالة كذلك ، وحين ذكر اسم هولاكو نثر الـــذهب

والفضة فوق رؤوس الناس ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، قبح الله ذلك القاضي والأمير والزوجة والسلطان .

(قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ج / ص: ٢٥٧/١٣)

وذكر أبو شامة : أن ابن الزكي استحوذ على مدارس كثيرة في مدته هذه القصيرة ، فإنه عزل قبل رأس الحول ، فأخذ في هذه المدة العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية . وأخذ لولده عيسى تدريس الأمينية ومشيخة الشيوخ ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصري ، وأخذ الشامية البارانية لصاحب له واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاه الرواحية والشامية البرانية .

قال أبو شامة : مع أن شرط واقفها أن لا يجمع بينها وبين غيرها . ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين ، سعى في القضاء وبذل أموالاً ليستمر فيه وفيما بيديه من المدارس ، فلم يستمر بل عزل بالقاضي نجم الدين أبي بكر بن صدر الدين بن سني الدولة ، فقرئ توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة في الحادي والعشرين من ذي القعدة عند الشباك الكمالي من مشهد عثمان من جامع دمشق .

ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق وراءهم ودخل دمشق في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً ودعوا له دعاء

كثيراً، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها ، وكـذلك المنصـور صاحب حماه ، واسترد حلب من يد هولاكو ، وعاد الحق إلى نصـابه ومهد القواعد . وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركـن الـدين بيبـرس البندقداري ليطرد التتار عن حلب ويتسلمها ووعده بنيابتها ، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استناب عليها غيره وهو عـلاء الدين ابن صاحب الموصل . وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير والأمير مجير الـدين بن الحسين بن آقشتمر، وعزل القاضي ابن الزكي عن قضاء دمشـق ، وولي ابن سني الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الإسلامية في خدمته ، وعيون الأعيان تنظر إليه شزراً من شدة هيبته .

♣♣♣♣♣

١٠ - اغتيـــال قطـــز

أورد المؤرخ العربى أبو الفدا فى تاريخه ، وكذلك المقريزى فـــى (السلاطين) ، الجزء الأول: أن السلطان قطز ، بعد انتصـــاره الكبيـــر على المغول فى عين جالوت ، انطلق فى رحلة العودة الى مصر نكللـــه أكاليل الغار والمجد . وكان قطز يرتاب فى أكثر قـــواده كفـــاءة وهـــو بيرس، وظلت الريبة تتزايد فى صدر قطز يوما بعد يوم . وكان بيبرس قد طلب أن ينصّب واليا على حلب ، لكن قطز رفض طلبـــه بصـــورة جافية ، مما أثار حفيظة بيبرس ، لكنه لم يبدها ، وكتمهـــا فـــى نفســـه وانتوى الإنتقام من السلطان قطـــز.

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م جاءت بيبرس فرصـــته ، إذ كـــان الجيش المنتصر على المغول يقترب من حافة الـــدلتا ، وذهـــب قطـــز للتريض وصيد الأرانب البريّة ، ومعه بعض خاصـــتة مـــن أصـــدقائه وأمرائه وفيهم بيبرس . وعندما ابتعدوا عن المعســـكر بمســـافة غيـــر قصيرة، اقترب أحد الأمراء من السلطان ، تدل هيأته على أنه ســـيطلب شيئا من السلطان قطـــز، وبينما كان ممسكا بيد السلطان متهيئا لتقبيلها ، انقض عليه بيبرس من الخلف وطعن قطز بسيفه فى ظهره . وانطلـــق المتآمرون على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا نبأ مصرع السلطان . وكان أقطاي ياور السلطان فى الخيمة الملكية ، فدخل عليه المتآمرون وأعلنوه بأنهم قتلوا السلطان ، فسأل أقطاي من فوره أيّهم الذى ارتكب القتـــل ،

فاعترف بيبرس بأنه هو الذى قتله ، فدعاه أقطاي إلى الجلـوس علـى عرش السلطان ، وكان أول من قدم له فروض الولاء والطاعة ، وحـذا قادة الجيش كلهم حذوه معربين لبيبرس عن فروض الولاء والطاعـة . وهكذا عاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا .

ولقد لصقت بالمماليك هذه الصفة ، الفوزِ بالسلطنة عن طريق الإغتيال ، أو بـالتعبير الآخر الأكثر شيوعا ، عن طريق قانون "البقاء للأصلح" . ويكاد يجمع الكافّـة ، شـرقا وغربا ، على استنكار تلك الطريقة الآثمة فى القفز إلى كرسـى الزعامـة ، ويزدرونهـا ، ويعتبرون المماليك قتلة مجرمين آثمين وحوش غير متحضرين .

وبينما لا ندافع عن أسلوب التآمر والإغتيال ، نلفت النظر إلى أن المماليك بتصـرفهم هذا لم يخترعوا جديدا ، ولم يستحدثوا هذه الوحشية وذلك الغدر ببعضهم البعض . ذلـك أن الأثرة والأنانية وحب الغلبة كامنة فى الإنسان منذ أن قتل أحد ولدى آدم عليه السـلام أخـاه غيرة وحسدا وحقدا . ولو أننا استعرضنا مسيرة الإنسان على مر التاريخ لوجدنا الكثير من الأمثلة على ذلك .

وتاريخ الإمبراطورية الرومانية حافل بتلك الأمثلة ، أبرزها وأشهرها تآمر بروتـوس ورفاقه وقتلهم يوليوس قيصر .

بل إننا لو سبرنا أغوار الدولة الإسلامية ذاتها لوجدنا الآتى :

♣ تآمر معاوية بن أبى سفيان وقتل الإمام الحسن بن على بالسم ، ناكثــا ما اشترطه على نفسه.

♣ وتآمر يزيد بن معاوية وقتل الإمام الحسين بن على شر قتلة ومثــّل به .

♣ وتآمر سليمان بن عبد الملك وقتل زعيم العلويين ، أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، بعد أن دعاه وأعطاه الأمان ودس له السم فى طعامـــــه .

♣ وتآمر هارون الرشيد نفسه وقتل امام العلويين يحي بن محمـــد بعد أن أعطاه الأمان .

... وقائمـــة تآمر القادة واغتيالهم لخصومهم غدرا وغيلة طويلة ، ولن تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وربما كان آخر ما وصل الينا من غدر الإنسان التآمر على جون فيتزجيرالد كنيدى وقتله ، ولو أن المتآمرين لا يزالون مجهولين ، وأغلب الظن أنهــم أحكموا تآمرهم بحيث دفنت أسماؤهم مع ضحيتهم فى مقبرتـــه .

ونحرص مرة أخرى على التذكير بأننا لا ندافع عن اسلوب التــآمر والإغتيــالات ولا نؤيده ، وانما نحرص بالأحرى على التذكير بأن المماليك لم يأتوا بجديد ، وبدلا من ازدرائهم وتحقير أفعالهم ، يكفى أن نلقى عليهم تلك النظرة المشفقة ، ثم نلتفت إلى انجازاتهم الرائعة .

♣♣♣♣♣

الفصل السابع

نظـــــرات



أولا : صدى الإنتصار فى عين جالوت

ثانيـــا : المغول تحت المجهـــــر

١ – الجندي المغَولى

٢ – نظام الإتصالات

٣ – نظام الإستخبارات

٤ – الشراسة والوحشية

٥ – فى ميدان القتــــال

٦ – تصــــدع الجغرافية السكانية

♣♣♣♣♣



صدى الا نتصار فى عين جالوت

يجمع المؤرخون على الأهمية البالغـة لمعركة عين جالوت . ابتهج لهـا الشـرق والمسلمون وتنفسوا الصعداء بعد أن انزاح عن صدورهم هذا الشبح المغولـى المخيـف ، وتناولها الغرب باهتمام شديد . وكنا نود أن نستعرض ما قالـه الغربيون عن هذه المعركة ، لكننا آثرنا أن نثبـت هنـا أبرز المؤرخين الغربيين المحدثين لحيدتـه ونظرتـه الثاقبـة وتحليلاتـه التى قلمـا يجانبها الصواب ، بالإضافة إلى مؤرخ غربى آخر :

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التـاريخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضآلة بحيث لم يقدر – فـى غيبة الكثير من الحظ الحسن – على الإضطلاع بإخضـاع المماليـك ، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثـة ، لأمكـن اسـتعواض الهزيمة ؛ غير أن تصاريف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التـاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهتـه . ولو قُـدّر للمغـول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فـى العـالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أن يكونوا الجنس الحاكم . ولو قدر لكيربوقا المسيحى الإنتصار ، لكان فى ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون الآسيويون فى مركز القوة للمرة الأولى منذ الهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العبـث أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك ، ولا يستطيع المؤرخ إلاّ أن يقص

ما قد حدث فعلا. لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية فى الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين فى آسيا؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحى فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين فى غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام . كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام التيوتونى ، باتوا تواقين إلى الإنتهاء من أعداء العقيدة .

وبعد خمسة أيام من الإنتصار فى عين جالوت ، دخل السلطان دمشق . فأما الأشرف الأيوبى الذي نبذ القضية المغولية فقد أعيد تنصيبه فى حمص ؛ وأما أمير حماه الأيوبى الذي هرب إلى مصر فقد أعيد إلى إمارته ؛ واستُعيدت حلب فى غضون شهر . وأما هولاكو ، الذي تملكه الغضب لفقدانه سوريا ، فكان فاقد الحيلة إلى أن يعود النظام فى قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لإستعادة حلب فى شهر ديسمبر ، لكنهم أجبروا بعد أسبوعين على الإنسحاب بعد أن ذبحوا عددا كبيرا من المسلمين انتقاما لموت كيربوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاكو للإنتقام لصديقه المخلص .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية ، تأليف السير ستيفن رانسيمان)

(الجزء الثالث ص ٣٦٦-٧٦٣)

أما المؤرخ التالى فهو دافيد ي. تشانز *David W. Tschanz* فيقول :

كان الصدام بين المغول والمماليك فى عين جـــالوت أحـــد أهـــم المعارك فى تاريخ العالم . ومع ذلك ، فإنها نادرا ما يصـــنفها التـــاريخ الغربي على هذه النحو بل حتى لا يـُـسمع لها ذكر وإن كانت للحضارة الغربية على جانب من الأهميـــة كمَـــاراثون *Marathon* وســـلاميس *Salamis* وليبانتو *Lepanto* وتورز *Tours*.[1]

[1] (المؤلف):

معركة ماراثون *The Battle of Marathon* : سنة ٤٩٠ قبل المـــيلاد ، التى انتصر فيها الإغريق على الفرس .

(١) معركة سلاميس *The Battle of Salamis*:سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، وهـــزم فيها أسطول أغريقى قوة بحرية فارسية ضخمة فى الممـــرات البحريـــة فـــى سلاميس بين جزيرة سلاميس وميناء بيريوس الأثينى .

(٢) معركة ليبانتو *The Battle of Lepanto* : يوم ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م التى هـــُزم فيها الأتراك العثمانيون فى ليبانتو باليونان ، فى البحر الأدرياتيكى ،أمام تحالف البنادقة مع القوات المسيحية التابعة للبابا بيوس الخامس و فيليب الثانى ملك أسبانيا .

(٣) معركة تورز: *The Battle of Tours* : وتسمى أيضـــا معركـــة بواتييـــه (أكتوبر ٧٣٢م) ، انتصر فيها تشارلز مارتل الحاكم الفعلى للممالـــك الفرنجيـــة على المسلمين الغزاة الآتين من الأندلس بقيادة عبد الرحمن والى قرطبـــــة .

♣♣♣♣♣

ويسترسل دافيد ي . تشانز قائلا :

" فلو أن المغول نجحوا فى هزيمة مصر لاستطاعوا أن يتدفقوا عبر شمال افريقيا حتى مضيق جبل طارق ، ولباتت أوروبا فى حلقة حديدية تحيط بها من بولندا وحتى البحر المتوسط ، ولكان بإمكان المغول الغزو من نقاط عديدة من غير المحتمل أن كان هناك أي جيش أوروبى قادر على صدهم ."

ونقول إن المعارك التى ذكرها ذلك المؤرخ ، ماراثون *Marathon* وسلاميس *Salamis* وليبانتو *Lepanto* وتورز*Tours* وغيرها من المعارك ، إنما هى معارك عادية شهدها تاريخ الإنسانية كما شهد غيرها ، ومر بها مرور الكرام ، لم يعط لها التاريخ بالا ولا اهتم بها إلا بقدر أحداث الظروف التاريخية التى حدثت فيها . ولا شك فى أنها معارك لم يكن لها تأثير فى مصير الإنسانية وحضارتها بنفس قدر تأثير معركة عين جالوت فى مسيرة الإنسان وحضارته . بل إن وضع معركة عين جالوت موضع المقارنة مع ما ذكره المؤرخ من معارك فيه ظلم كبير وانتقاص من الأهمية البالغة ليوم عين جالوت . ومهما يكن الأمر ، فإن المؤرخ يعترف فى نهاية تعليقة بمدى الخطر المحدق بأوربا كلها لو أن المغول كسبوا هذه المعركة .



المغــول تحت المجــهر

١ – الجندي المغــولى

قلنا إن المغول كانوا أشبه بقوة من قوى الطبيعة ، لا يوقفها شئ ، تدمر وكأنها تعاقب. وفى أقل من جيلين كانوا يسيطرون على جزء كبير من العالم يمتد مــن وطــنهم الضــئيل المهمــل وحوافر خيولهم تدق كــل الأراضىَ من كوريا إلى بولنـــدا . ولــو أردنـــا أن نعرف السر فى سرعة هذا الإنتشار الواسع لعلمنا أن مرجع ذلك يكمن فى أعلى مســتويات التدريب والنظام والإستطلاع والتعبئة والإتصالات ، على نحو لم يسمع به أحد فى أي جيش آخــر فى اية فترة تسبق القرن العشرين .

فكان كل الرجال الذين تزيد أعمارهم على أربعة عشر عاما يجنــدون فــى الخدمــة العسكرية ، تاركين قطعانهم وبيوتهم ، على أن تلحق بهم زوجاتهم وأطفالهم مع قطعانهم .

ودائما ما كان المعسكر يضرب على نسق معياري ، ويجرى تجميــع العســكر فــى وحـــدات تتألف كل وحدة من عشرة رجال ، ويطلق على وحدة العشــرة (أربان arban)، وكل عشرة أربان تؤلف (ياجون jagun) وهكذا حتى يصل عدد العسكر إلى مائة ألف وهى فرقة (أوردو ordu) .

وكانت التدريبات على الحرب وركوب الخيل ، والرمي بالسهام ، شيئا أساســيا فــى تكوين الأسلوب المغولى فى القتال ، وكان جنود المغول غاية فى الإنضباط والنظام فى وقت كانت فيه أغلب الجيوش تتألف من غوغاء شبه نظامية.

وملابس الجندى المغولى خفيفة جدا ، وارتحاله خفيف جدا كذلك ، فكـــان الجنـــدي يرتدى قميصا داخليا حريريا ومن فوقه سترة ، وزيادة على ذلك ، كان أفراد الخيالة ثقيلـــو المهام يرتدون سلسلة مدرعة وقشور درعية حديدية مغطاة بالجلد . ومع كل رجـــل تـــرس مغطى بالجلد وخوذة إما جلدية أو حديدية بحسب رتبتة العسكرية . وكانت الأسلحة تتألف من قوسين مركـــبين وستين سهما . وكانت الخيالة الخفيفة تحمل سيفا قصـــيرا ورمحـــين أو ثلاثة ، بينما كان جندى القوة الأساسية مجهز بسيف معقوف وقضيب شائك ورمـــح طولـــه أربعة أمتار . كما كان لدى الجنود ملابس وأوعية للطهى ولحوم مجففة وماء وأشياء أخرى أصغر . وأما سرج الفرس ، فكان مصنوعا من أحشاء البقر ، ولأنه لا يتأثر بالماء وقابـــل للنفخ فمن الممكن استعماله للطفو عند عبور الأنهار . وعلي ذلك ، كان باستطاعة الفـــارس خفيف الأحمال أن يقطع مسافة مائة ميل فى اليوم .

٢ – نظام الإتصالات

ومن بين أكبر المميزات التى كان المغول يتصفون بها ، نظام للإتصالات بالغ الكفاءة والتنسيق يقوم على الرايات والمشاعل والخيالة من حاملى الرسائل لمسافات شاسعة دائما ما كانوا يستبدلون الجيـــــاد أثناء عدوها . ومن ثم ، استطاعت جميع الوحـــدات المغوليـــة أن تبقى على اتصال وثيق مع بعضها البعض ، وتحت سيطرة قائد واحد ، من خـــلال تنظـــيم حاملى الرسائل ، حتى وإن كانت المسافات تزيد على آلاف الأميـــال . ولـــم يتحقـــق هـــذا المستوى من تكامل الحركة والإتصال مرة أخرى إلا فى الصورة المركبة للآليات المتحركة والإتصالات اللاسلكية فى الحرب العالمية الثانية .

٣ – نظـــام الإستخبارات

ولقد ركز جنكيز خان نفسه على أهمية جمع المعلومت المخابراتية . فكـان قبـل أن يشرع فى حملة عسكرية يجمع من التجار والمسافرين والجواسيس معلومـات دقيقـة عـن الأحوال فى بلد العدو ، والطرق ، والجسور ، وكانت الشوراع الأخـرى دائمـة الصـيانة لضمان سرعة الحركة والإتصال . وكان يرسل فرق الكشافة إلى مسافات تصل أحيانا إلـى ألف ميل كي يرسلوا إليه تقارير منتظمة .

وكان الجيش المغولى ، أثناء تقدمه ، يجـبر شباب الريف على الإنخراط فى جماعات عمل لنقل المؤن والحفاظ على الطرق العامة مفتوحة ، وكان يسـتخدم العمـال المهـرة أو المهندسون من بين هؤلاء الشباب فى تشييد وصيانة آلات الحصار .

٤ – الشراســـة والوحشيـــة

وكان الجانب الأكثر شراسة فى السياسة العسكرية المغولية هو تعمـد اللجـوء إلـى الإرهاب لتخويف الأعداء كي لا يصبح هناك إلا الإستسلام . فإذا مـا استسـلم العـدو دون مقاومـة ، عادة ما يفوز بالسلامة ؛ وإذا ما رفضت الحامية الإستسلام ، فإنها تحاط بسـور من المتاريس وبخندق يتولى السجناء العبيد عمليات بنائهما . ثم تقصف المناجق الأسوار إلى أن تحدث فيها ثغـرة ، وعنئذ يملأ المجرى المائي بالسـجناء إجبـارا ويسـاقون كطليعـة للهجوم، ثم يتبعهم المغول من ورائهم .

وفى حالة الإستيلاء على مدينة ما ، يجبر سكانها على الخروج منهـا والتجمـع فـى أرض فضاء خارج الأسوار ، ثم يجرى نهب المدينة . وإذا ما قام السكان عموما بتحصـين المتاريس ، يجرى قتل الكل رجالا ونساء وأطفالا ، وفى حالة واحدة على الأقـل كانت حتى القطط والكلاب تقتل كذلـك . وكانت تلك السياسة الشرسة تستهدف المدن التاليـة بطـول الطريق حتى تستسلم بدلا من أن تقـاوم .

٥ - فى ميدان القتـــال

وكانت الإستراتيجية المغولية المعتادة فى ساحة القتال القيام بهجوم مباشـر سـريع ، وبالنظر إلى أن سرعة تحركهم وأنظمة جمع المعلومات الإستخباراتية كانت تفـوق كثيـرا خصومهم الذين كانوا عادة من الإقطاعيين ، فقد كان المغول قادرون عادة علـى التركيـز بصورة أسرع على إرباك عدوهم . وإذا ما فشلت تلك الإستراتيجية ووجد المغـول أنفسـه يواجهون قوة تعادل قوتهم ، أو وضع قوي للأعداء ، أو أعداد تفوق أعدادهم بكثير ، فـإنهم عندئذ يستخدمون تفوقهم فى المناورة والإتصال حتى يستدرجوا العدو إلى مكان يلائمهم كي تدور فيه رحى الحرب والقتال ؛ وكانت التكتيك المفضل لديهم التظاهر بالإنسـحاب الـذي يستهدف التربص بالعدو الذي يشغل أماكن قوية كي يطارد القوة المغولية للوصول إلى الفخ الذي سبق إعداده بعناية . وهناك تكتيك آخر وهو محاولة سيرهم فى طريق جانبى تـاركين الأماكن القوية للعدو ، ثم الإيقاع به فى الفضاء الفسيح أثناء إعادة تنظيم صـفوفه لمجابهـة المغول فى وضعهم الجديد . كما قد يرسل قائد الجيش المغولى كتائب تجاوز خطوط العدو

وحوله بينما يكون الجيش الرئيسى مشتبكا فى القتال مع جيش العدو ، وبإشارة مـــن القائـــد تطبق تلك الكتائب على جيش العدو أو تهاجم أحد الجناحين أو المؤخرة .

٦ – تصدع الجغرافية السكانية

لم يقتصر الدمار الذى خلفه المغول على مجرد المدن والقري . وإنما لحقت أضـــرار جسيمة بأنظمـــة شبكات الري مثل تلك التى فى خراسان (شمال فارس) ، وفارس نفســـها ، والعراق (الجزيرة) ــ وهى ثمار ما يزيد على ٥٠٠٠ سنة من الجهود الجماعية التى حولت الصحارى والأراضى المعشوشبـــة إلى ربما أجود الأراضى الزراعية إنتاجا علـــى وجـــه الأرض . ولم تبرأ مناطق كثيرة من الهجمة المغولية ولم ترجع إلى مستوى عهدها الســـابق على الخراب المغولى . وتدل الصور الملتقطة من الفضاء على أن العراق ربما لا تروى ولا تزرع أكثر من ٦٠% من الأراضى الزراعية التى كانت مستخدمة فى عهد الخلفاء العباسيين عام ٨٠٠ م .

كما أن القاعدة المغولية ، بموقفها العرضى حيال الزراعة والضرائب الباهظـــة التـــى المفروضة على المزارعين ، ثبّـــطت من أعمال الإصلاح . وانزلقت العراق ، التى كانت تتمتع بالألوف من الفائض الزراعى منذ عهد سحيق يرجع إلى سنة ٣٥٠٠ قبل المـــيلاد ، إلى زراعة توفر العيش بالكـــــاد .

وتوحى الدلائل بهبوط مأساوى فى عدد السكان يساوى بكل المعايير أســـوأ كـــوارث التاريخ. وتدل الدراسات التى أجريت فى منطقة ديالا القريبة من بغداد على أن هذه المنطقة ،

التى ربما كان تعداد سكانها ٩٠٠ر٠٠٠ نسمة فى أيام العباسيين حوالى سنة ٨٠٠م ، تعـول حوالى ٦٠ر٠٠٠ نسمة فى حوالى سنة ١٣٠٠م تحت الحكم المغولى . ونسبة الهبوط فى عدد السكان هذه وقدرها ٩٠ % أرجعت المنطقة إلى مستويات السكان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . ومن الواضح أن أقل من نصف الأراضى التى كانت تـُـزرع فى تلـك المنطقـة أيـام العباسيين ما يزال فى الإمكان زراعتها فى سنة ١٣٠٠م . كما ولم تكن تلك المنطقة حالـة معزولة أو حالة متطرفة . ويظهر إحصاء عثمانى للسكان أجري فى ١٩١٥م فـى سـوريا الحديثة وفلسطين أن أقل من ٦٠٠ر٠٠٠نسمة يعيشون فى منطقة كان سـكانها حـوالى ٤ مليون فى أيام الإمبراطورية العربية .

ويقول المؤرخ العسكرى جيمس دونيجان *James Dunnigan*

إن للغزوات المغولية وقعا تناول العالم على سعته (أنظر الجدول). فبالإضافة إلى القتل المباشر ، كانت هناك أمراض ومجاعات دائما مـا تحدث فى أعقاب الجيوش المغولية . فكانت المنازل والأدوات الزراعية تـُـدمـّر على نطاق واسع . ومنذ آنذاك كـان مزارعـو العصـور الوسيطة يعيشون على هامش البقاء على قيد الحياة ، وكان حصـاد أو حصادان كفيل بمجاعات بالجملة والوفاة من جراء المرض . ولم يكـن ذلك حادثا عرضيا ، "فكان المغول يرون فى تدمير المصادر الزراعيـة وسيلة لمنع ضحاياهم من أن يبرأوا من محنهم ويحاربوهم انتقاما."

لقد تسببت حملات المغول ذات النطاق الواسع فى وجود عامـل مميت بصورة حتى أكبر فى الساحة . فالأمراض الوبائية التـى مكثـت

طويلا فى منطقة واحدة ، حملتــها الآن الجيوش المغولية فى تحركهــا السريع إلى أماكن لا تتوفر لساكنيها مقاومة لتلــك الأوبئــة الغريبــة . وأوضح ما يعرف عن تلك البلايا "الطاعون الأسود" ، ولكن يقينا لم يكن الوحيد .

إن الغزوات المغولية وما ترتب عليها من قاعــدة صـــارمة فـــى الأراضى الواقعة شرق الفرات تركت تراثــا مـــن المـــدن المبعثـــرة ، وتناقص عدد السكان ، وتكنولوجيا جرى قلبها رأسا على عقب ، الأمر الذى قطع أساس الإزدهار والنجاح الذى دام فى الشرق الأوسط لخمسة آلاف سنـــة .



جـــدول السكان (بالملايين) فى مختلف المناطق فى بداية القرنين ١٣ و ١٤

المنطقة	(١٢٠٠م)	(١٣٠٠م)	التغـــــير	%
الصين	٠٠ر١١٥	٠٠ر٦٨	- ٢ر٢٥	%
كوريا	٠٠ر٤	٠٠ر٣	- ٠ر٢٥	%
منشوريا	٥٠ر٤	٨٠ر٤	+ ١ر١	%
تركستان الشرقية	٢٠ر٢	٣٠ر٢	+ ٥ر٤	%
إيـــــران	٠٠ر٥	٥٠ر٣	- ٠ر٣٠	%
أفغانستان	٥٠ر٢	٧٥ر١	- ٠ر٣٠	%
العـــــراق	٥٠ر١	٠٠ر١	- ٣ر٣٣	%
أوروبــا	٠٠ر٥٨	٠٠ر٧٩	+ ٢ر٣٦	%
الهــــند	٠٠ر٨٦	٠٠ر٩١	+ ٨ر٥	%
المجموع	٧٠ر٢٧٨	٣٥ر٢٥٤	-------------	

المراجـــع العربيــــــة

١ـ ديورانت ، ول، قصة الحضارة : تعريب محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م .

٢ـ عبد الرحمن الشرقاوى : أئمة الفقه التسعة ، ج ٢ ، الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب ، القاهرة ١٩٨٧م .

٣ـ السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة فى أخبـــار مصـــر والقـــاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ا لقاهرة .

٤ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل : البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ .

٥ـ الهمذانى ، رشيد الدين بن فضل الله : جامع التواريخ فى تاريخ المغول ، تعريب محمد صادق نشأت ومحمـــد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠م .

٦ـ الوينينى ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد : ذيل مرآة الزمان ، حيدر أبـــاد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م .

٧ـ ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمـــد : زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق ســـامى الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨م .

٨ـ المقريزي ، تقى الدين أحمد بن على : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤م .

٩ـ القلقشندى ، أبو العباس أحمد : كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩م .

١٠ـ أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اســـماعيل : كتاب الروضتين فـــى أخبـــار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القـــاهرة ، لجنـــة التـــأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦م .

English References:المراجع الإنجليزيــــة

01. Amitai-Preiss, Reuven. *The Mamluk-Ilkhanid War*, 1998

02. Ashtor, Elihayu, *Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (1976).

03. Dunnigan, James F. Impact of the Mongols on Medieval Population. Cry "*Havoc!*" 23:25-26 (1998.

04. Glubb, John B. *The Lost Centuries*. London: Hodder & Stoughton, 1967.

05. Glubb, John B. *A Short History of the Arab Peoples*. London: Hodder & Stoughton, 1967.

06. Khowaiter, Abdul-Aziz. *Baibars the First: His Endeavours and Achievements*. London: Green Mountain Press, 1978.

07. Marshall, Robert. *Storm from the East*. London: BBC Books, 1993.

08. Muir, William. *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt AD 1260-1517*. Amsterdam: Oriental Press, 1968.

09. Robinson, John. *Dungeon, Fire & Sword*. New York: M Evans & Compnay, 1991.

10. Saunders, JJ. *A History of Medieval Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd, 1965.

11. Sir Steven Runciman, *A History of the Crusades,* Penguin Books, Cambridge University Press, London, 1991.

12. Von Grunebaum, GE. *Classical Islam: A History 600-1258*. trans. Kathleen Watson New York: Barnes & Nobles Books, 1996.



المحتويـــات

♣♣♣♣♣



المؤلـــف

*مترجم بالأمم المتحدة والمنظمات الدولية .
* عضو اتحاد كتاب مصر .
* له تراجم ومؤلفات منها :
- المخدرات ، حقائق اجتماعية وطبية ونفسية .
- تاريخ النقود .
- رجل الأقدار (مجموعة قصصية) .
- موسوعة تاريخ الحملات الصليبية .
- المماليك المفترى عليهم (١) شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر .
* أمضى أكثر من ٢٥ عاما فى تأليف موسوعة الأديان الثلاثة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) بالإنجليزية والعربية .

هذا الكتــــاب

* هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلة (المماليك المفترى عليهم) .
- سيف الدين قطز قاهر المغول : ما هى قصة المغول ؟ ما هى حضارتهم ؟ ماذا كان يريد جنكيز خان ؟ ولماذا خربت بغداد وقتل الخليفة المستعصم ؟ وماذا قال مؤرخو الغرب عن معركة عين جالوت ؟ وماذا كان سيحدث لو انتصر المغول ودخلوا مصر ؟ وماذا قال هولاكو لسيف الدين قطز فى رسالته ؟ وماذا قال قائد المغول لسيف الدين قطز بعد هزيمته فى عين جالوت ؟ يجيب المؤلف على كل تلك التساؤلات ويمحص ما جاء فى تواريخ العرب والغربيين على السواء .
ويبرزالمؤلف أهمية الإنتصارالمملوكى بمقولة شيخ المؤرخين المعاصرين، السير ستيفن رانسيمان :

> كان النصر المملوكى فى عين جالوت إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قـدّر للمغول التوغل داخل مصر لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش .

ويدعوالمؤلف إلى دراسة جديدة جادة للعصر المملوكي ، وينادى بتجلية صورة المماليك العظام حتى تتخذهم الأجيال الصاعدة مثلا أعلى وقدوة تحتذى كي تتحرر الأراضى التى اغتصبها الصليبيون الجدد ، وتعود القدس وقبّـة صخرتها ومسجدها الأقصى للعرب واالمسلمين ، وتتألق سابق أمجادهم .



الفتح
للطباعة والنشر
أمام كلية حقوق الاسكندرية
ف:٤٨٤٠٦٦٤ ت:٤-٤٨٧٠٢٠٣

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥/١٤١٨٧
الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977-5245-44-3